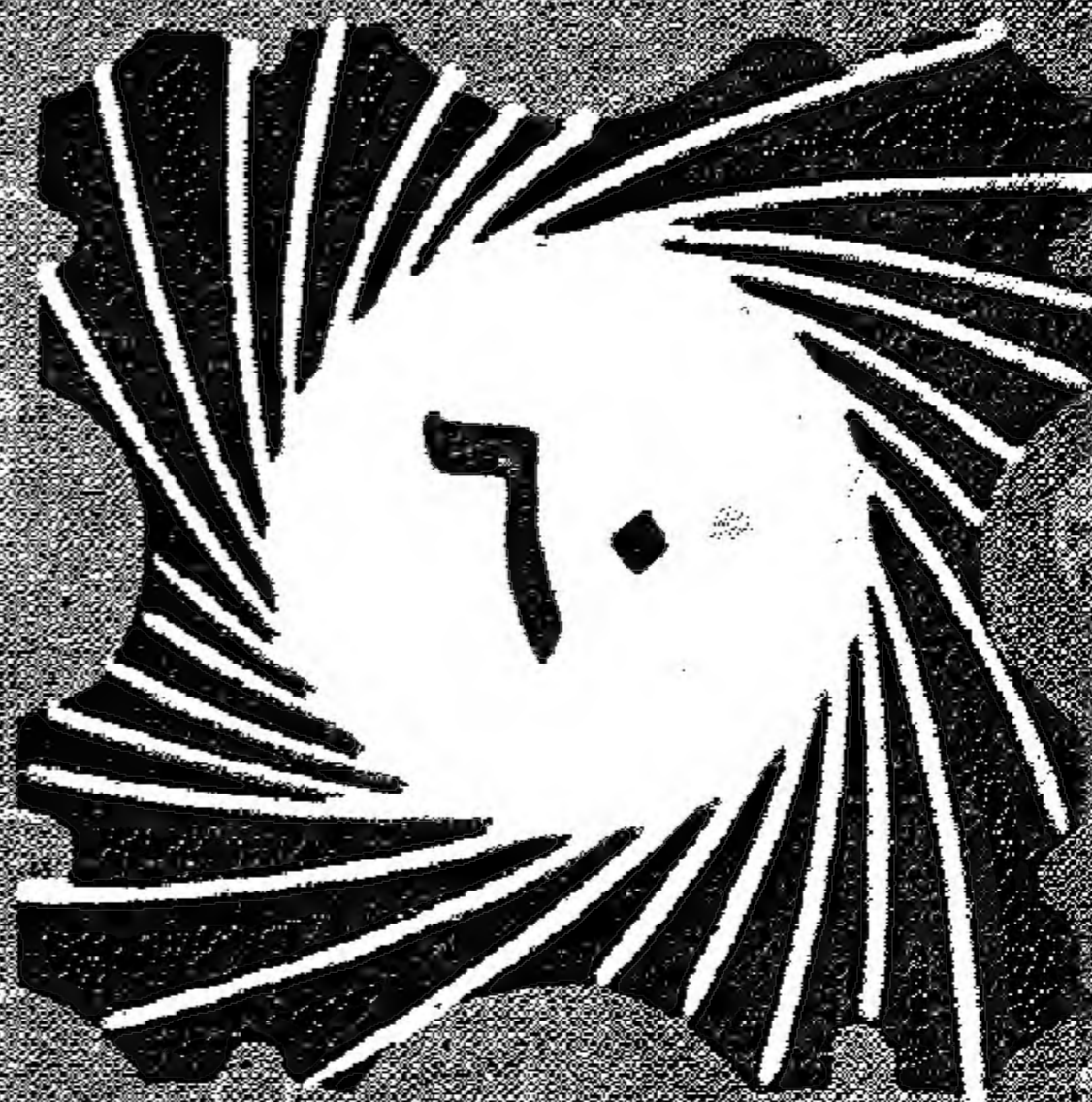


أعلام العرب



المقَرِّى

نصبت

صاحب نفح الطيب

بقلم

محمد عبد الغنى حسن

الدار
المصرية
للتأليف
والترجمة

أعلام العرب

٦٠

المقري

صاحب نفح الطيب

بقلم

محمد عبد الغني حسن

الدار المصرية للنالفت والترجمة

مقدمة

لا أدري ما الذى شدنى الى الكتابة عن هذا الرجل المغربى العجيب ، الموسوعى النظرة ، الذى جمع بين الفقه والحديث والتاريخ والأدب والمحاضرة والمسامرة والوعظ والارشاد ، فكان فى ذلك كله نادرة من نواذر الزمان ؟

ولقد بدأ اهتمامى بأبى العباس شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ من سنوات عديدة ، منذ قرأت له « تفح الطيب » فى أجزائه الأربعة الضخمة ، فكنت أقف فى كثير من المواضع ، وتخرج بى استطرادات الرجل الكثيرة المتعاقبة الى فنون من الأدب ، وشعب من المسائل ، وذخيرة من التاريخ ، ورياض من الأسمار ، وطرائف من الأشعار ، فأعجب من هذه العقلية الموسوعية ، التى تفيض كالبحر ، وتتدفق كالسيل ، وتجمع من شتيت الأخبار ما تفرق ، وتضم ما يختلف .

وزاد من اعجابى بنفح الطيب وصاحبه أن الكتاب جمع من تاريخ الأندلس ومن تاريخ المسلمين فيها ما لا تجده فى كتاب غيره . وقد أتاح له تأخر زمانه فى القرن الحادى عشر الهجرى أن يصل من أخبار الأندلس ما انقطع بعد النكبة التى أصابتها بل أصابت الإسلام فى بقعة عربية كريمة كانت قطعة من الأرض

العربية في أوروبا ، وظلت على ذلك بضعة قرون ، الى أن تأذن الله لشمسها أن تأفل ، ولملكها أن يزول .

وقل أن تجد في كتاب آخر عن الأندلس ما تجده في « نفع الطيب » فقد أتيح للمقرى من الكتب ما لم يتح لنا الى اليوم أن نعر عليه . ووقع له من المصادر ما لاوجود له اليوم ، وبهذا استطاع أن ينقل نصوصا كثيرة لا نستطيع الى الحصول على أصولها اليوم سبيلا . وقد كان للرجل عناية بالغة بالكتب ، واطلاع دائم عليها ، وقوة عظيمة في حفظها والرواية عنها ، وأفاد من خزانة الكتب الخاصة بأبي المعالي زيدان السعدى — سلطان المغرب في وقته — فائدة عظيمة . وقد كانت تلك المكتبة تحتوى على ثلاثة آلاف سفر من أنفس الكتب .

ولقد كان فضل « المقرى » ، الذى لا يجحده الا منكر ، أنه استطاع في « نفع الطيب » أن يصون لنا نقولا ونصوصا كثيرة . واذا لم يكن له فضل الناقد المؤرخ ، فله فضل الحافظ المدون . وهو فضل لا يستهان به ، وخاصة في تاريخ الأندلس التى ضاع كثير من تاريخها ومعالمها على اثر المحن والنكبات المتعاقبة التى توالى عليها ، حتى خرج أهلها منها الى العداوة الأفريقية بالمغرب مجردين من كل شيء الا من ذكريات أمسهم الدابر ، وعزهم الغابر ...

ولم يكن المقرى شاهد عيان لنكبة العرب والمسلمين في الأندلس ، ولكنه جاء الى هذه الدنيا بعد المحنة بما لا يزيد على

قرن من الزمان . ولعل أصداءها الحزينة كانت لا تزال على عهد
ترن في المغرب الذي أنجب هذا المؤلف العظيم . بل لقد شهد
بعينه في مدينة فاس ألوف العرب الذين أجبروا على التنصر أولا،
وعلى الخروج من أرضهم الطيبة ثانيا ، وكان ذلك في سنة ١٠٢٧ هـ
١٦٠٨ م قبل أن يغادر وطنه المغرب في سبيله الى القاهرة والشرق
سنة ١٠٢٧ هـ .

وما كان أروع المقرئ وهو يصف لنا في سطور قليلة
— ولكنها مزدحمة بالمعاني — خروج آخر سلاطين الأندلس منها
بعد ما ضاع ملكه ، ونزوله بمليلة ، ثم بمدينة فاس (بأهله
وأولاده ، معتذرا عما أسلفه ، متلهفا على ما خلفه ، وبني بفاس
بعض قصور على طريق بنيان الأندلس ، رأيها ودخلتها ...)

وما كان أشد الأسى في عبارته ، وهو يصف لنا بعد ذلك
ذرية سلاطين الأندلس ، وهم بمدينة فاس بالمغرب على عهد
(يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ، ويعدون من جملة
الشحاذين ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ..) .

ومن عجيب قضاء الله أن أبا العباس المقرئ الذي أفاد كل
مؤرخ للأندلس ، وكل كاتب عنها ، من كتابه « فتح الطيب » ،
لم ينل من عناية المؤرخين المعاصرين والمحدثين الا قليلا ، لا يفي
بفضله ، ولا يجزيء في الترجمة له ، والتعريف به . فكان من ذلك
فصل للأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه « تراجم اسلامية

شرقية وأندلسية » . وكان من ذلك مقال في مجلة الثقافة —
العدد ٦٣٠ — للأستاذ على أدهم ، وكان من ذلك رسالة أصدرتها
دار الكتب الشرقية بتونس للأستاذ الحبيب الجنحاني سنة ١٩٥٥ .

وقد حملني ذلك التقصير في حق « المقرئ » الذي أقام في
القاهرة أربعة عشر عاما ملأها وملأ أزهرها المعمور بعلمه ودروسه،
وصنف فيها « نفح الطيب » كله من أوله الى آخره — وهو
بعيد عن كتبه ومراجعته في المغرب — ونادته منيته فيها حيث
دفن بثرها الطاهر في قرافة المجاورين — أقول حملني ذلك
وحملني غيره من اعتبارات الأخوة بين المغرب العربي والمشرق ،
أن أكتب هذه الدراسة عن هذا الرجل ، وفاء له ببعض الدين
الذي أسلفه الى القاهرة ، بل الى بلاد العرب والأسلام .

وأرجو مخلصا أن يرضى القارئ العربي الكريم عنها ، وأن
يلمس الجهد الذي بذلته فيها وبالله التوفيق .

محمد عبد الغنى حسن

ملاحم عصر

يجدر بنا قبل أن نصور العصر الذي عاش فيه المقرئ في المغرب حتى خرج منه راحلا الى الشرق سنة ١٠٢٧ هـ أن نرتد قليلا الى القرن العاشر الذي ولد صاحبنا في العقد الأخير منه على الراجح .

وقد شهد العقد الثالث من القرن العاشر الهجري استيلاء السلطان سليم العثماني على مصر والشام وبذلك صارتا ولايتين عثمانيتين . وكان ذلك بداية الاحتلال التركي في الشرق العربي .

وقد اتسعت حملات العثمانيين في أخريات عهد سليم ، وعهد ابنه سليمان القانوني ، فامتدت الى الشمال الأفريقي بفضل قرصنة أسرة بربروس ورئيسها خير الدين الذي كان أكبر قائد بحري في وقته . وما زالت مطامع الأتراك تمتد في أفريقيا والمغرب حتى استولى حسن بن خير الدين التركي على تلمسان من أرض الجزائر سنة ٩٥٢ هـ . وتلمسان هي المدينة التي كانت مقر آباء المقرئ بعد رحيلهم اليها من « مقرة » ، كما كانت أرض ميلاده . وباستيلاء الأتراك على تلمسان انقرضت دولة بني زيان منها ، وعز على السلطان « أبو عبد الله الشيخ » سلطان الدولة السعدية بالمغرب — أن يستولى الترك على تلمسان والمغرب الأوسط ، وهم أجانب

عن البلاد دخلاء عليها . فجرد جيشا لاسترداد تلمسان . ونجح
في ذلك فدخلها سنة ٩٥٧ وطرده الأتراك منها . ولكنهم عاودوا
الكرة واثمت الى أن صارت في أيديهم .

وكان حادث استيلاء الأتراك على تلمسان سببا في توتر
العلاقات بين السلطان العثماني وسلطان المغرب ، وكثيرا ما قام
الوسطاء بالسفارة بينهما ، كما كان أمر « أبي عبد الله الخروبي »
الطرابلسي نزيل الجزائر . وامتدت مطامع الأتراك الى فاس من
بلاد المغرب ، حتى لقد عاونوا على قتال السلطان أبو عبد الله
الشيخ وطرده من فاس ، ولكنه استطاع أن يعود اليها ويستولي
عليها سنة ٩٦١ هـ . ويصفو له أمر المغرب .

ولا بد أن نشيد هنا بشجاعة السلطان « أبو عبد الله
الشيخ » ووطنيته وقوميته العربية . فقد كان من أوائل أهل
المغرب الساخطين على الحكم العثماني في مصر والتدخل العثماني
في الشمال الأفريقي ، وكان ناقما على السلطان العثماني سليمان
القانوني ، وكان يطلق لسانه فيه بما كان يصل اليه وتنقله العيون
عنه . حتى لقد بلغه قوله : (لا بد أن أغزو مصر ، وأخرج
الترك من أجزارها ... !) وبلغ من وقاحة السلطان سليمان
العثماني وطموحه الى الاستيلاء على المغرب أنه لما اتقضت
دولة الوطاسيين ، واستقر الأمر لدولة السعديين بالمغرب ، كتب
الى « الشيخ » يهنئه بالملك ، ويطلب منه أن يدعى له على منابر
المغرب ! وبعث له رسولا بذلك . ولما سمع « الشيخ » كلام

السلطان العثماني على لسان الرسول غضب ، وحمى الله ، وأبرق وأرعد : فلما طلب منه الرسول الجواب أجابه محتدا : (لا جواب لك عندي حتى أكون بمصر ان شاء الله ، وحينئذ أكتب الى سلطان القوارب !!) يعني سلطان قراصنة البحار !! ولقد جزع الرسول من غضب « الشيخ » وخشى أن يصيبه منه شر ، فخرج خائفا يتلفت ...

وكانت نتيجة موقف « الشيخ » من السلطان سليمان القانوني انه ما زال بهذا الوطني العظيم حتى دبر له من الأتراك من قتلوه في وطنه ، وبعثوا برأسه اليه في الآستانة ، فأمر بأن تعمل له شبكة من نحاس ، ويوضع فيها ، ويعلق على باب القلعة ...

ولم يزل الرأس معلقا الى أن جرت الأحداث بأن يفد الى الآستانة ولدا أبي عبد الله الشيخ المقتول ، ليستعديا السلطان العثماني على ابن أخ لهما يتافسهما في الملك .. !

وعاود الاتراك الكرة على فاس للاستيلاء عليها بقيادة حسن خير الدين بربروس ، ولكن الهزيمة كتبت عليهم . وكان المتنازعون على الملك من أبناء أسرة « الشيخ » يلجأون الى أعدائهم الأتراك للاستعانة بهم على بعضهم بعضا ، كما كانوا يلجأون الى أعدائهم من غير المسلمين — من الأسبان والبرتغال — لذلك القرض نفسه . فنسبوا في سبيل الملك أوطانهم ، بل نسوا دينهم ، مما جر عليهم البلاء والاقضاء . وكان نزاع الأخوة وأبناء العم والأبناء من دولة السعديين بالمغرب ظاهرة

تلفت النظر ، حتى استغلها العدو العثماني : والعدو المسيحي الآخر القريب منهم لمصلحته . ولم تستطع هذه الدولة أن تهدأ بعض الهدوء النسبي الا في عهد السلطان أبي العباس أحمد الملقب بالمنصور ، والمعروف بالذهبي ، بسبب كثرة الذهب في عهده بما فتح الله عليه من التملك والفتوح في قلب البلاد السودانية ، (حتى كان المنصور لا يعطى في الرواتب الا النضار الصافي ، والدينار الوافي . وكان يبايه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة لضرب الدينار الوافي ، دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأقراط والحلى ...) ^(١) وقد أدرك صاحبنا المقرئ عصر المنصور الذهبي الذي توفي سنة ١٠١٢ هـ . ولعله لقيه في زيارته الأولى لفاس سنة ١٠٠٩ ، وان كانت هجرته الأولى الى فاس للتوطن بها لم تكن الا سنة ١٠١٣ ، أي بعد وفاة المنصور بعام واحد .

وقد شهد المقرئ في عهد المنصور السعدي أمورا كثيرة الا أن ذلك كان في أخريات عهد المنصور ، فقد كان المقرئ قبل ذلك جنينا في ضمير الغيب .. ولعل أغرب ما شاهده المقرئ في عهد المنصور هو ثورة ولده المسمى « بالمأمون » عليه ، وخروجه على والده بفاس ، وتصميمه على الاستعانة بالأتراك في تلمسان على والده السلطان ، والاستجارة بهم ، للتخلص من أيه ، والاستيلاء على الملك بدلا منه . وكان ذلك سنة ١٠١٠ هـ — أي قبل رحيل المقرئ الى فاس بثلاث سنوات .

(١) الاستقصا — للسلاوي — ج ٥ ص ١٢٥ .

على أن المقرئ شهد في عصر خلفاء السلطان المنصور السعدي
أمورا كثيرة من الفتن والمنازعات والحروب الداخلية بينهم ، طمعا
في الملك ، وتنافسا على السلطان . وكان في مراکش جبهة ، وفي
فاس جبهة ، ينشب من كل منهما الصراع المرير بين أبناء البيت
الحاكم الواحد . حتى السلطان أبو المعالي زيدان بن المنصور ،
والذي كان المقرئ في كنفه مقربا منه مستفيدا من خزانة كتبه
الخاصة ... هذا السلطان انحرفت عنه مراکش بجبهتها المعادية له .
وكان ما كان من أمر فتنة العرائش التي تجد تفصيلها هنا في فصل
خاص .

هذه لمحة خاطفة عن الحالة السياسية في العصر الذي عاش
فيه المقرئ بالمغرب . ولقد كان أعداء المسلمين من الأسبان
والبرتغاليين يفيدون من هذه الاضطرابات والفتن والمنازعات بين
الأبناء والأخوة وأبناء العم على السلطان حتى انتهى الأمر بسقوط
دولة السعديين وقيام دولة أخرى بالمغرب .

وليس المهم أن تسقط دولة وتقوم أخرى ، ولكن المهم أن
هذه الأحداث المتتالية لم تدع لبلاد المغرب سبيلا إلى الهدوء ،
والاستقرار ، والتقدم إلى الأمام .

بين المولد المغربي والنسب القرشي

من هو المقرئ ؟

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى
ابن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقرئ . ويكنى
أبا العباس ، ويلقب بشهاب الدين .

وهذا النسب الذي تنقله هو عن صاحب « خلاصة الأثر » .
أما نسبه ابتداء من جده أبي عبد الله محمد الذي كان من أكابر
شيوخ الوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب ، فنحن تنقله عن
المقرئ صاحب نفح الطيب الذي نقله عن كتاب « الإحاطة » ، كما
جاء فيه : (محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر ، بن يحيى ،
ابن عبد الرحمن ، بن أبي بكر ، بن علي القرشي المقرئ) (١) .

وأنت ترى من هذه النسبة التي ذكرها لسان الدين بن الخطيب
الأديب الأندلسي الكبير أنهم قرشيون : وأنهم ليسوا من أهل
المغرب وأصحابه الأولين ، بل هم وافدون عليه من الجزيرة
العربية فيمن وفد إلى الغرب والأندلس .

والطريف في أمر هذا النسب القرشي أن صاحبنا أحمد المقرئ

(١) نفح الطيب ج ٣ - ص ١١٠ .

يشير الى أن أحد المغاربة لما اطلع عن نسخة كتاب « الأحاطة »
الذى فيه هذا الكلام ، كتب على هامش الكتاب في هذا الموضع
عبارة تفيد أن ابن الخطيب واهم في ذكره لهذا النسب القرشى .
ولم يزد هذا المعلق المغربى على هذا أكثر من قوله أمام هذا
الموضع من الاحاطة : القرشى وهم .

ولم يزد هذا المعلق على هذه الجملة القصيرة شيئاً ، ولم يقل
من أين جاء الوهم الى هذا النسب . وقد أتيج لهذه النسخة
من كتاب الأحاطة أن يطلع عليها عالم قديم من علماء المغرب
اسمه أبو الفضل التلمسانى ، ووقف عندما علق به المغربى من
انكار النسب القرشى على بيت المقرى . فكتب تحته ما نصه :
(بل صحيح ! نطقت به الألسن والمكاتبات والأجازات ، وأعربت
عنه خلال الكريمة . الا أن البلدية — أى المشاركة فى البلد
الواحد — يا سيدى أبا عبد الله والمنافسة تجعل القرشية فى
امام المغرب أبى عبد الله المقرى وهما ! والحمد لله) (٢) .

ولم يسكت صاحبنا أحمد المقرى على هذا الإنكار لنسبهم
القرشى من بعض المغاربة . فأتى بتعليق أبى الفضل التلمسانى
السابق وزاد عليه قوله : (وممن صرح بالقرشية فى حق الجد
المذكور ، ابن خلدون فى تاريخه ، وابن الأحمر فى « ثر الجمان »
وفى « شرح البردة » عند قوله :

(٢) . نفع الطيب ج ٣ ص ١١٠ .

لعل رحمة ربي حين ينشرها .

والشيخ ابن غازي ، والولي الصالح سيدي أحمد زروق ،
والشيخ علامة زمانه سيدي أحمد الوائشيشي ، وغير واحد .
وكفى بلسان الدين — يعنى لسان الدين بن الخطيب — شاهدا
مركي) .

وقد جمعت أسرة المقرئ القديمة الى شرف النسب القرشي ،
كثرة الولد ، وارتفاع الأحوال ، وسعة الأموال . ويشير
أبو عبد الله محمد جد المقرئ الى هذا ، واصفا كيف اشتهرت
ذرية جدهم عبد الرحمن بالتجارة ، فمهدوا طريق الصحراء في
المغرب بحفر الآبار ، وتأمين التجار . وكان لهم من سمات الامارة
ما جعلهم يتخذون لهم طبلا عند المسير ، وراية تقدم على رواحلهم
اشارة اليهم ، وتخصيصا بهم . واتخذوا بأقطار المغرب الحوائط
الواسعة المملوءة بأشجار الفاكهة ، واتخذوا الدور والمصانع ،
وتزوجوا النساء ، واستولدوا الاماء .. واتصل هؤلاء المقرئون
بأمراء أفريقية وسلاطينها ، فتذلت لهم الأرض للسلوك — كما
يقول جد المقرئ — (فخرجت أموالهم عن الحد ، وكادت تفوق
الحصر والعد) .

ولكن هذه النعمة الوافرة ، والثروة الطائلة لم تدم ، فأسرف
الأبناء في النفقة ، ولم يقوموا بأمر تمييز المال كما قام آباؤهم ،
وأصابتهم الفتن المتوالية التي كان المغرب لم يسلم منها ، وتناقص
حالهم وأمرهم ، الى حد أن أبا عبد الله محمد — جد المقرئ —

رأى بعينه تناقص حال أجدادهم في عهده ، فقال : (فهأنذا لم أدرك من ذلك الا أثر نعمة ، اتخذنا فصوله عيشا وأصوله حرمة ، ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب ، وأسباب كثيرة تعين على الطلب ..) .

وما زال الحال يتناقص بهذه الأسرة القرشية الكريمة الى أن جاء عهد أحمد المقرئ المترجم له ، فوجد المال قد ضاع كله . ولكن السيادة والشرف لم يضع ، ووجد آثار المكتبة العظيمة التي أشار اليها جده ، فأفاد منها كما أفاد بها أبوه من قبله . وان كان الله شاء أن يبعد عن هذه الخزانة الحافلة بالكتب حين رحل الى المشرق ، وأن لا يعود اليها ، ففضى بالقاهرة (٣) .

وقد اهتم المقرئ بأخبار جده أبي عبد الله . وأورد له في الجزء الثالث من النفح ترجمة طويلة نقلها عن « الاحاطة » كما نقل تراجم شيوخه الكثيرين الذين أخذ عنهم في المغرب . أو لقيهم بتونس ، أو قابلهم في مصر والحجاز والشاء وبیت المقدس ، ويربى عددهم على الثلاثين شيخا . ومنهم أبو حيان الغرناطي العالم النحوي الكبير الذي لقيه بمصر (فرويت عنه واستفدت منه) .

(٣) كثيرا ما يشير المقرئ الى كتبه الكثيرة التي تركها وراءه بالمغرب ، والى أنها ليست في يده بمصر ساعة تأليفه النفح ، فيقول في ج ٣ ص ١٧٤ : (وقد ملكت بفاس مجلدا ضخما بخط مؤلفه ، وهو أحد علماء مدينة فاس ، ألفه برسم مولاي الجد ، وسماه بالزهر الباسم ، وأطال فيه في مدح مولاي الجد ، والثناء عليه ، والتنويه بقدره ، وذكر محاسنه ، ولم يحضرني الآن ، لكوني تركته مع جملة كتبي بالمغرب .

ولقد كان جد المقرئ رجلا عالما جليلا مباركا ، فشيوخه كثيرون كما ذكرنا ، وتلاميذه كثيرون مشهورون في عالم الفقه ، ودنيا الأدب ، وروضة الشعر ، وساحة التاريخ ، ومجال التصوف ومنهم الوزير لسان الدين بن الخطيب ، والوزير الأديب عبد الله ابن زمرك ، ومحمد بن سعيد الصنهاجي عالم الفقه وحجة القضاء ، وابن خلدون المؤرخ وصاحب المقدمة المشهورة ، وأبو اسحاق الشاطبي ، وعبد الله بن جزى ، ومحمد بن عباد الرندي الولي الشهير وشارح حكم ابن عطاء الله السكندري . ويعتز المؤرخ ابن خلدون بتلمذته على أبي عبد الله محمد جد المقرئ ، فيعبر عنه تارة بصاحبنا ، ويعبر عنه في بعض المواضع بشيخنا (٤) .

ويشير أكثر المؤرخين والعلماء المغاربة الى جد المقرئ في مؤلفاتهم ، مما يؤكد انه لعب دورا هاما في تاريخ الحركة العلمية بهذا القطر الشقيق منذ بضعة قرون . وقد حفظ له المغرب هذا الجميل ، فألفت في سيرته ثلاثة كتب ، أولها : « النور البدرى في التعريف بالفقيه المقرئ » لأبي عبد الله بن مرزوق شيخ شيوخ المغرب في وقته . وثانيها كتاب أبي العباس الوائشري في التعريف بالمقرئ ، وثالثها كتاب « الزهر الباسم » لأحد علماء مدينة فاس الذي تقدمت الإشارة اليه في هذا الفصل .

ولا بأس هنا أن نستطرد الى لقاء جد المقرئ مع المؤرخ ابن خلدون ؛ فقد كان لقاء طريفا بالقاهرة ، وقد كان جد المقرئ

(٤) نفع الطيب ج ٣ ص ١٧٥ .

نازلا بها في خلال رحلته الطويلة الى المشرق . وندع ابن خلدون نفسه يصور لنا هذا اللقاء الذي دار فيه الحديث حول عظمة مدينة القاهرة (حضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، واىوان الاسلام ، وكرسى الملك . تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقه ، وتضئ البدور والكواكب من علمائه . قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ، ومدفع مياه السماء ، يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثجه . ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم . وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه في العمران ، واتساع الأحوال . ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا ، حاجهم وتاجرهم ، بالحديث عنه . سألت صاحبنا قاضى الجماعة بفاس ، وكبير العلماء بالمغرب ، أما عبد الله المقرئ ، فقلت له كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عز الاسلام) (٥) .

وقد امتاز جد المقرئ بالحكمة وصواب الرأى ، فوق تعمق العالم وأصالته . فقد كان ملوك المسلمين في عصره كأكثر ملوك المسلمين في كل عصر وزمن في انحرافهم عن جادة الحكم الصحيح ، فلما سأله أحد الفقهاء عن (السبب في سوء بخت المسلمين في

(٥) التعريف بابن خلدون ، ورحلته غربا وشرقا - لابن خلدون . تحقيق وتعليق محمد بن تاويت الطنجي ص ٢٤٦ و ٢٤٧ وانظر النص ايضا في نفح الطيب ج ٣ ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

ملوكهم اذ لم يل امرهم من يسلك بهم الجادة ، ويحملهم على الواضحة ، بل من يفتر في مصلحة دنياه ، غافلا عن عاقبة أخراه ، فلا يرقب في مؤمن الا ولا ذمة ، ولا يراعى عهدا ولا حرمة) أجا به ذلك الجد الفقيه الواعى بقوله : (ان ذلك لأن الملك ليس في شريعتنا ، وذلك انه كان فيمن قبلنا شرعا ، قال الله تعالى ممثنا على بنى اسرائيل « وجعلكم ملوكا » ، ولم يكن ذلك في هذه الأمة ، بل جعل لهم خلافة . قال الله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض . الآية » وقال تعالى « وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا » وقال سليمان « رب اغفر لى وهب لى ملكا » فجعلهم الله تعالى ملوكا . ولم يجعل في شرعنا الا الخلفاء ، فكان أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان لم يستخلفه نصا ، لكن فهم الناس ذلك فهما ، وأجمعوا على تسميته بذلك ، ثم استخلف أبو بكر عمر ، فخرج بها عن سبيل الملك الذى يرثه الولد عن الوالد ، الى سبيل الخلافة ، الذى هو النظر والاختيار ، ونص في ذلك على عهده ، ثم اتفق أهل الشورى على عثمان ، فاخراج عمر لها عن نبيه الى الشورى ، دليل على انها ليست ملكا ، ثم تعين على بعد ذلك اذ لم يبق مثله ، فبايعه من آثر الحق على الهوى ، واصطفى الآخرة على الدنيا ، ثم الحسن كذلك . ثم كان معاوية أول من حول الخلافة ملكا ، والخشونة لينا ، ثم ان ربك من بعدها لغفور رحيم . فجعلها ميراثا . فلما خرج بها عن وضعها لم يستقم ملك فيها . ألا ترى ان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان خليفة

لا ملكا ، لأن سليمان رحمه الله تعالى — رغب عن بنى أبيه ، إيثارا
لحق المسلمين ، ولئلا يتقلدها حيا وميتا ، وكان يعلم اجتماع الناس
عليه . فلم يسلك طريق الاستقامة بالناس قط الا خليفة .
وأما الملوك فعلى ما ذكرت الا من قل وغالب أفعاله غير مرضية ^(٦) .

وقد كان في جد المقرئ اعتداد بالنفس ، لمكانه من العلم الذي
رفعه فوق ما رفعه النسب القرشي ، وكان تقيب الشرفاء بمدينة
فاس اذا دخل مجلس السلطان يقوم له كل من في المجلس اجلالا
له حتى السلطان نفسه .. الا جد المقرئ . فلما عاتبه التقيب قائلا
له : أيها الفقيه ! مالك لا تقوم كما يفعل السلطان نصره الله وأهل
مجلسه اكراما لجدي ولشرفي ؟ ومن أنت حتى لا تقوم ؟ أجابه
أبو عبد الله المقرئ جوابا حاضرا مسكنا : أما شرفي فمحقق بالعلم
الذي أنا أبته ، ولا يرتاب فيه أحد ! وأما شرفك فمظنون . ومن لنا
بصحته منذ أزيد من سبعمئة سنة . ولو علمنا شرفك قطعاً لأقمنا
هذا من هنا — وأشار الى السلطان أبي عنان — وأجلسناك !!
وهنا عجز تقيب الأشراف وسكت عن الجواب ..

وقد ورث المقرئ الحفيد ، صاحب نفح الطيب ،
هذا الاعتداد بالنفس عن جده الكبير أبي عبد الله المقرئ . ولعل
هذا الاعتزاز هو الذي جنى عليه في مسألة تطليقه لزوجته القاهرية
الوفائية ابنة السادات ..

(٦) نفح الطيب ج ٣ ص ١٤٧ .

بين مقرة وتلمسان

ان بلدة مقرة التى ينسب اليها آباء المقرى ، هى من أعمال قسنطينة باقليم الجزائر اليوم ، وقد انتقل منها أحد أجداده المسمى عبد الرحمن الى مدينة تلمسان بالجزائر أيضا ، فى صحبة أحد أصحاب الطريق المتصوفين ، وهو الشيخ الولى أبو مدين ، الذى دعا لهذا الجد ولأسرته بالبركة والنماء . ومقرة قرية من قرى الزاب بأفريقية أو بالمغرب الأوسط ، ويقول عنها ياقوت صاحب معجم البلدان (انها مدينة بالمغرب ، فى بر البربر ، قرية من قلعة بنى حماد ، بينها وبين طينة ثمانية فراسخ) .

وقد اختلفت الأقوال فى ضبط نطق هذه البلدة المغربية التى اشتهرت بما أنجبته من أجداد للمقرى قبل نزوحهم منها الى تلمسان . فالعالم المؤرخ ابن مرزوق ينطقها ويكتبها بفتح الميم وسكون القاف ، ويرى ان ذلك هو صحة النطق باسمها . وقد ذكر ذلك فى كتاب له شرح فيه الألفية المشهورة لابن مالك ، كما ألف كتابا فى تاريخ جد صاحبنا عنوانه : النور البدرى ، فى التعريف بالفقيه المقرى . فأكدت السجعة فى عنوان الكتاب — مرة ثانية — رأيه فى ضبط هذا الاسم .

ويرى الأكثرون ان اسم « مقرة » بفتح الميم ، وتشديد القاف ، وهى التسمية التى شاعت ، وطردت تسمية العالم ابن مرزوق ومن ذهب مذهبه . وعلى هذه التسمية ، بالفتح والتشديد ، جرى

أكثر المتأخرين ، كما جرى عليها اليوم كل المحدثين والمعاصرين ،
من العرب والمستشرقين (٧) .

أما مدينة تلمسان ، فهي البلدة التي ولد بها أحمد أبو العباس
المقرى صاحب نفح الطيب . ولم تكن في الأصل دار إقامة لبیت
المقرى ، بل سبقتها إليها قرية « مقرة » التي اتسبوا إليها . وكان
عبد الرحمن بن أبى بكر المقرى — وهو الأب الخامس لجسد
المقرى — قد انتقل إليها من مقرة ، واتخذها قرارا للأسرة بعد
أن كانت لمن قبله مزارا . وكان ذلك فى القرن السادس الهجرى
برفقة الصوفى الأندلسى شعیب التلمسانى المشهور بأبى مدين (٨)
الذى دفن بها ، ولا يزال قبره بها مزارا مشهورا ، وبیتا معمورا ،
حتى ليعد قبره هناك من مفاخرها .

وقد حبت الطبيعة تلمسان بأجمل المناظر ، وخلعت عليها أفوافا
من الجبال ، وامتازت برياضها النضرة ، وحدائقها المزهرة التى
لم يفت واحدا من شعراء الوصف للبلدان أن يشير إليها ، كالشاعر
محمد بن يوسف الثغرى ، كاتب السلطان أبى حمو الزيانى سلطان
تلمسان ، الذى يقول فيها :

(٧) انظر «تاريخ الأدب العربى» لنیکلسون — الطبعة الانجليزية
الثانية ١٩٣٠ . مطبعة جامعة کمبریج . ويرسمه بالحروف
اللاتينية .

(٨) الاعلام للزركلى .

قم مبصرا زمن الريح المقبل
تر ما يسر المجتنى والمجتسلي
وانشق نسيم الروض مطلولا ، وما
أهداك من عرف وعرف فاقبل
وانظر الى زهر الرياض كأنه
در على لبات رباب الحلى !
وتمش في جناتها ورياضها
واجنح الى ذاك الجناح المخضل
تسليك في دوحاتها وتلاعها
نعم البلابل واطراد الجدول
وكالوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب الذي مدحها قائلا :
حيا تلمسان الحيا ، فربوعها
صدف يجسود بدرها المكنون
ما شئت من فضل عسيم ان سقى
أروى ، ومنّ ليس بالمنسون
وكالامام الصوفي محمد بن خميس الذي يقول فيها من قصيدة
رصينة :
فكم لى عليها من غندو وروحة
تساعدنى فيها المنى والمنسائح
فطرف على تلك البساتين سارح
وطرف الى تلك الميادين جامع

ظبياء مغانيها عواط عواطف

وطير مجانيها شسواد صوادح

ويقول المقرئ عن محل ميلاده تلمسان انها من أحسن مدائن الغرب ماء وهواء . أما ابن مرزوق العالم المؤرخ المشهور فيقول فيها : يكفيك منها ماؤها وهواها (٩) .

ويشاء الله أن يولد أحمد أبو العباس المقرئ في تلمسان قريبا من الوقت الذي سقطت فيه في يد الأتراك العثمانيين الذين استولوا عليها سنة ٩٥٣ هـ . وبقيت في أيديهم الى أواسط صدر المائة الثالثة عشرة من الهجرة ، حيث استولى عليها الفرنسيون (١٠) في سنة ١٨٣٠ م .

ولا نعرف بالضبط التاريخ الذي ولد فيه أحمد المقرئ بتلمسان ، فقد سككت عن ذلك كل المراجع القديمة التي ترجمت له . أما المصادر المعاصرة فقد لجأت الى الاستنتاج في تاريخ مولده . فالمستشرق الفرنسي ليثي بروقنسان يذكر في « دائرة المعارف الاسلامية » أنه ولد في نحو سنة ١٠٠٠ هـ المقابلة لسنة ١٥٩٢ م . ولم يذكر لنا على أي شيء استند الى اختيار هذا التاريخ ومن أي

(٩) هذا الشطر عجز بيت من بيتين أوردهما المقرئ في مقدمة ازهار الرياض في تضاعيف الكلام كأنهما له ، وهما لابن مرزوق كما يوضحه ما جاء في نفح الطيب ج ٤ ص ٢٦٧ . ولولا المصادفة ما عرفنا أنهما لابن مرزوق ، بل ظننا كما ظن الكثيرون أنهما للمقرئ نفسه ..

(١٠) الاستقصا للسلاوي ج ٤ ص ١٦٣ .

المصادر أخذه ؟ ومهما يكن من أمر فإن استنتاجه هذا لم يسلم من التعليق عليه ومناقشته وعدم الأخذ به . وصاحب الفضل في هذا هو الأستاذ محمد عبد الله عنان الذي لا يقبل هذه الرواية الفرنسية ، ويردها الى ما قبل هذا التاريخ بيضعة أعوام ، معللا ذلك بأن المقرئ ذكر لنا أنه « نشأ بتلمسان الى أن رحل عنها في زمن الشبيبة الى مدينة فاس سنة تسع وألف » ، فلو كان مولده سنة ١٠٠٠ هـ — كما يقول بروقنسال — لما تحدث المقرئ عن الشبيبة ، اذ يكون عمره عندئذ تسعة أعوام فقط ، أعنى غلاما حدثا ، وهو ما لا ينصرف اليه الشاب . ولم يكتف الأستاذ عنان بهذا التعليل الجيد المعقول ، بل أضاف اليه تعليلا آخر ، وهو أن المقرئ يشير حين حديثه عن اعتزامه التأليف عن الأندلس ، الى شبابه الذي كانت ظلاله ضافية عليه ، وهو بالمغرب قبل وفوده الى مصر سنة ١٠٢٧ هـ . ومعنى هذا انه حين قدم الى مصر كان قد طوى مرحلة الشباب الأولى وربما كان يومئذ في نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، وعلى ذلك يكون مولده قبل الألف بنحو ثمانية أعوام ، أى حوالى سنة ٩٩٢ هـ (١١) .

وقد شك الأستاذ على أدهم في صحة التاريخ الذي ذكره ليقى بروقنسال مولدا للمقرئ ، وذهب مذهب الأستاذ عنان في تعليقه (لأن الانسان لا يقول عن نفسه وهو في التاسعة انه في زمن

(١١) تراجم اسلامية . لمحمد عبد الله عنان — ص ٢٤٥ ،

الشيعية) (١٢) ولكنه لم يشر الى انه اطلع على رأى الأستاذ محمد عبد الله عنان أو استأنس به ، وإن كانت الطبعة الأولى من كتاب « تراجم اسلامية » للأستاذ عنان قد ظهرت سنة ١٩٤٧ .

ولقد أوطأنا أحمد المقرئ العشوة — كما يقول المثل العربى — حين تعمد أن لا يذكر لنا تاريخ مولده بمدينة تلمسان وهو يترجم لنفسه فى نفح الطيب . فأوقعنا من أمره فى أمر مريب .. ولعله كان فى اخفاء تاريخ مولده ، وبالتالى اخفاء سنه ، كان عاملا برأى جده أبى عبد الله محمد المقرئ وذاها مذهب فى التغاضى عن ذكر ذلك ، عملا بما أثر عن الامام مالك بن أنس رضى الله عنه حين سأل سائل عن سنه ، فأجابه متخلصا من جواب السؤال قائلا : أقبل على شأنك ! فليس من المروءة للرجل أن يخبر بسنه .. !

(١٢) مجلة الثقافة العدد ٦٣٠ يناير سنة ١٩٥١ .

بين المغرب والمشرق

لعل أول عهد المقرئ بالاغتراب عن موطنه ومحل ميلاده تلمسان ، كان في سنة ١٠٠٩ هـ ، حيث يحدثنا عن ذلك قائلاً :
(وبها — يعنى بتلمسان — ولدت أنا وأبى وجدى وجد جدى ،
وقرأت بها ونشأت ، الى أن ارتحلت عنها في زمن الشيبة الى
مدينة فاس سنة تسع وألف) (١) .

ولم يطل بمدينة فاس مقامه هذه المرة ، فقد عاد منها الى
تلمسان حيث قصد منها الى زيارة مراكش سنة ١٠١٠ هـ .
ولم تكن زيارته لمراكش الا لبضعة شهور حيث عاد منها في أواخر
العام نفسه الى تلمسان ليبدأ منها في سنة ١٠١٣ زيارته الثانية
لمدينة فاس ، التي امتد أمدها الى أربعة عشر عاماً ، انتهت بتوجهه
الى الشرق في أواخر رمضان سنة ١٠٢٧ هـ .

وهذه الرحلات الى فاس ومراكش هي جولات المقرئ في
المغرب ، أما جولاته في المشرق فسنعود اليها عما قليل .

وفي خلال حديث المقرئ عن رحلاته الى مدائن المغرب ، كان
حريصاً على أن يبرز لنا نبأ زيارته لقبور الصالحين والعلماء

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٦٩ .

المشهورين هناك ، كما كان هذا شأنه في زياراته لبلاد المشرق .
وقد زار بمراكش قبر السهيلي مرارا ، كما زار بها قبر الولي
العارف بالله أحمد بن العريف الأندلسي .

ولم يكشف لنا المقرئ عن سبب زيارته لمراكش ، ولعلها كانت
من تلك الزيارات العابرة التي لا تحدد هدف صاحبها من الإقامة
والتوطن . أما رحلته الى فاس فقد سار فيها على سنن جده المشهور
أبي عبد الله محمد المقرئ الذي خرج من موطنه تلمسان قاصدا
فاس في أيام السلطان أبي عنان في القرن الثامن الهجري ، فولاه
السلطان قضاء الجماعة فيها ، وبنى له المدرسة المتوكلية أعظم
المدارس هناك ليقوم بالتدريس فيها . ويشير المقرئ الى ذلك
في مقدمة كتابه « أزهار الرياض » قائلا : (فألقيت بها — يعنى
فاس — عصا التسيار ، وقاها الله من الآفات والأغيار ، واقتفيت
في ذلك سنن بعض سلفي الأخيار ، اذ كان أشهر أسلافنا الشيخ
الامام ، صاحب التصانيف الشهيرة التي اقتادت المحاسن بزمام ،
القاضي الأشهر ، العلامة الأظهر ، سيدي أبو عبد الله محمد
ابن محمد بن أحمد المقرئ القرشي التلمساني النشأة والقبر ،
أفاض الله سجال الرحمة على مثوى ذلك الجد ، اتقل اليها أيام
السلطان المرحوم أبي عنان) .

وقد يكون الاقتداء بأحد الجدود في الرحلة الى بلد سببا غير
كاف عند مريد البحث والتحقيق . ولهذا استظهر بعضهم أن هناك

أسباباً سياسية حصلت الرجل على هذا المحمل (٢) . ولكنهم لم يذكروا لنا هذه الأسباب . ولم يرد في كلام القرى ما يدل على سبب تلك الرحلة غير اقتفائه سنة جده « أبو عبد الله » ، فليس هناك ما يدعو لانتحال الأسباب . أما القول بأنه رحل إليها لمشاهدة آثار الفن الأندلسي الجميل الذي كان في فاس منه ملامح ومشابه ، فهو من باب التطوع بالقول على سبيل الافتراض والتخمين ، لا على سبيل القطع واليقين .

ولعل المقرئ أراد أن يقيم في فاس لازدحامها بالعلماء من ناحية ، وليكون قريباً من السلطان زيدان السعدى بن المنصور الذى انتقلت إليه السلطنة بوفاة والده العظيم ١٠١٢ هـ ، وإن كان لم يسلم من مناوأة اخوته . ولقد كان زيدان هذا أحق أخوته المتنازعين بأن يلجأ عالم كالمقرئ الى كنفه ، وأن يختار كفته . فقد كان فقيهاً ، وله مشاركة في العلوم ، وتفسير للقرآن الكريم .

أما رحلة المقرئ الأولى الى فاس سنة ١٠٠٩ فكانت في عهد السلطان المنصور السعدى والد زيدان ، وقد أشار الى عرفان المنصور بالحقوق . ولا ندرى اذا كان يقصد بهذا حقوق الرعية ، أم حقوقه نحوه (٣) . وأياً ما كان الأمر فإن اتصال المقرئ بالسلطان أبى المعالى زيدان كان أقرب وأمتن من صلته بوالده المنصور .

(٢) أزهار الرياض : المقدمة التى كتبها المحققون — ص « د » .

(٣) نفح الطيب ج ٣ ص ١٠ .

وتبدأ رحلة المقرئ الى الشرق في أواخر رمضان سنة ١٠٢٧هـ .
ويكثر التسأل بين مؤرخي المقرئ المعاصرين عن أسباب هذه
الرحلة ؛ كما يختلف تعليلهم لها . فقد كان في فاس يتمتع بحظوة
ومنزلة ، ويحظى بالخطابة والفتوى ، ويظفر بالقرب من السلطان
زيدان والافادة من مكتبته الخاصة . فما الذي حمله على ذلك
والهجرة الى الشرق ؟

قد تكون الفتن والاضطرابات في المغرب بعد وفاة المنصور
وتزاع أولاده على الملك عاملاً فعالاً في اتجاه المقرئ نحو
المشرق . ولما عزم المقرئ على مغادرة وطنه المغرب لم يثنه عن عزمه
هذا شيء ، حتى لم تؤثر فيه تلك الأبيات الثلاثة التي استشهد له
بها بعض أصحابه المغاربة من شعر ابن خاتمة . فان القاضي
أبا البركات — وكان من أشياخ لسان الدين بن الخطيب —
لما عزم على الرحلة الى المشرق كتب اليه ابن خاتمة الشاعر الأديب
يصرفه عن عزمه قائلاً :

أشمس الغرب حقاً ما سمعنا بأنك قد سئمت من الاقامه ؟
وانك قد عزمت على طلوع الى شرق سموت به علامه ؟
لقد زلزلت منا كل قلب بحق الله لا تقم القيامة !!
ولم تنفع هذه الأبيات في صرف المقرئ عن وجهته من الرحيل
الى المشرق .

ولما روى المقرئ قصيدة الوزير الشاعر الأديب لسان الدين
ابن الخطيب التي مدح بها السلطان أبا سالم المريني حين فتح

تلمسان ، أشار في تقديمه لها الى سبب ايراده اياها في هذا
الموضع لمناسبة الحال (لما اشتمل عليه آخرها من شرح أمر
الاغتراب ، الذي حير الألباب .. وللمناسبة أسباب لا تخفى على
من له فكر مصيب . وكل غريب للغريب نسيب ..) (٤) .

ولعل عرضنا لأبيات الشاهد من قصيدة لسان الدين
ابن الخطيب يكشف لنا عن هذه المناسبة التي تحمل بعض وجوه
الشبه بين اغتراب الرجلين : ابن الخطيب والمقرئ . فلنسمع الى
لسان الدين وهو يقول :

بلادى التى فيها عقدت تمائى
وجمّ بها وفرى ، وجل بها شانى
تحدثنى عنها الشمال فتشتى
وقد عرفت منى شمائل نشوان !
وآمل أن لا استفيق من الكرى
إذا الحلم أوطانى بها ترب أوطانى
تلون اخبوانى على وقد جنت
على خطوب جمّة ذات ألوان
وما كنت أدرى قبل أن يتنكروا
بأن خوانى كان مجمع خوئانى !
وكانت — وقد حم القضاء — صنائى
على بما لا أرتضى شر أعوان

(٤) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٦ .

فهنا يشكو ابن الخطيب من تلون الاخوان ، وتنكر الأصحاب ،
وخيانة من تحرموا بطعامه ، وأكلوا على خوانه ، فهل لقي المقرئ
في فاس مثل هذا الذي شكاه منه ابن الخطيب ؟

والذي يلفت النظر في رحلة المقرئ من المغرب الى المشرق
أنه جرى فيها على سمت المواطن المستقيم ، والسياسى الحكيم
الذى لا يغادر وطنه في الخفاء ، أو يتركه على طريق التسلل .. فقد
اتخذ من الحج وأداء الفريضة بالحجاز سببا لرحلته ، ثم أراد أن
يزيد في الحصافة خطوة أو خطوات . فاستأذن السلطان المغربى
في الخروج ، ولما تمهل السلطان في الاذن له أخذ يستعجزه وعده .
ولما علم صديقه المؤلف عبد العزيز الفشتالى الوزير المغربى الأديب
بعزمه على الرحلة الى الحجاز بعث اليه برسالة سجلها في موضع
من كتابه تفح الطيب (٥) .

وكانت رحلة المقرئ في البحر الشامى — البحر الأبيض
المتوسط — رحلة مثيرة . ويظهر انها كانت أول عهده بركوب
البحار . ويظهر ان الموج كان عاليا ، والرياح كانت شديدة ،
والعواصف كانت عالية . فلم تكن رحلة هادئة ، ولا سفرة بحرية
مريحة ، حتى لقد أشرفت نفوس الركب فيها على التلف . وقد
جمعوا الى الخوف من الفرق الخوف من مهاجمة عدو ، لاجتيازهم
على عدة من بلاد الحرب التى لم تكن في سلم مع المسلمين يومذاك .
وقد صور لنا المقرئ أهوال هذه الرحلة في صورة أدبية ممتعة ،

(٥) ج ٣ ص ٤٣٥ .

وان كان جرى فيها على طريقة السجع والصنعة في البيان . وما زال
الركب في دعر واضطراب الى أن بلغوا مصر في سنة ١٠٢٨ هـ .
ومن مصر جعل المقرئ منطلق رحلاته الى الحجاز ، والقدس ،
والشام . وفي خلال هذه الرحلات كان يشتغل صاحبنا بالتدريس
في المساجد الجامعة الكبرى ، فدرس في المسجد الحرام بمكة ،
وأملئ الحديث النبوي بالمدينة (برأى منه عليه الصلاة والسلام
ومسمع) ، ولازم خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور ، وألقى
عدة دروس بالمسجد الأقصى والصخرة المنيفة . أما املاؤه صحيح
البخاري بالمسجد الأموي بدمشق تحت قبة النسر المشهورة ، فقد
عقدنا له فصلا خاصا في هذا الكتاب .

ولفت نظرنا في خلاصة الأثر قول صاحبها المحبى أن المقرئ
دخل دمشق في أوائل شعبان سنة ١٠٣٩ . وهو واهم في هذا
التاريخ . فالثابت من كلام المقرئ نفسه ^(٦) في النفع انه دخل
الشام في شعبان عام سبعة وثلاثين وألف — ١٠٣٧ هـ ، ولعل
الوهم تسرب الى المحبى من عبارة المقرئ في الجزء الأول من النفع
صفحة ٣١ ففيها شيء من الاضطراب الذي يحتاج الى حرص من
القارئ لازاحة النقاب عنه .

(٦) نفع الطيب ج ٣ ص ٢٦٩ .

زواج من بيت السادات وطلاق في القاهرة

هناك مؤرخ حموى دمشقى عاش قريبا من عصر المقرئ وتوفى بعده بسبعين عاما ، وهو محمد أمين المحبى صاحب « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » . وبعد هذا الكتاب أحد مصادرها عن سيرة شهاب الدين المقرئ . بالاضافة الى ما كتبه ابن معصوم صاحب « سلافة العصر » وما كتبه المقرئ عن نفسه فى مقدمة كتابه « تفح الطيب » . وقد ترجم المحبى للمقرئ ترجمة تبلغ تسع صفحات من كتابه الذى يقع فى أربعة أجزاء كبار .

ولقد أشار المحبى الى ورود المقرئ الى مصر بعد الحج فى رجب سنة ١٠٢٨ هـ وتزوجه بها من السادة الوفائية ، كما أشار فى آخر الترجمة الى انه (طلق زوجته الوفائية وأراد العود الى دمشق للتوطن بها ، ففاجأه الحمام ، قبل نيل المرام) .

ولم يزد صاحب خلاصة الأثر على هذا فيما يتصل بزواج المقرئ وطلاقه .

ولا تتناول الروايات المصرية المتأخرة هذا الحادث المؤسف فى حياة المقرئ بأكثر مما جاء فى خلاصة الأثر ، مع اختلاف العبارة

وعدم خروجها عن المعنى الوجيز المحدد الذى أراده المحبى ، فقد كان صاحب الخلاصة هو المصدر المعروف لدينا عن زواج المقرى وطلاقه فى القاهرة . وهو مصدر كان قريبا جدا من صاحب تفح الطيب كما رأيت . الا أن ابن معصوم — أحد أعلام الأدب فى القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر — لم يشر الى هذه الحادثة العارضة فى حياة المقرى أية اشارة فى خلال ترجمته للرجل ، وهى ترجمة قد نقل أكثرها عما ذكره المقرى عن نفسه فى كتابه « تفح الطيب » .

وقد تزيد الأستاذ محمد عبد الله عنان فى حكاية هذا الزواج بما يعد استنباطا من خبر صاحب الخلاصة دون استناد الى مصدر آخر ، فقال عنه : (ولكنه لم يكن زواجا موفقا ، وقد فصمت عراه — كما سرى — بعد أعوام من الحياة الزوجية الكدرة) ثم عاد بعد ذلك الى حكاية التطلق قائلا : (وكان المقرى منذ عوده من دمشق قد طلق زوجته الوفائية ، ووضع بذلك حدا لتلك الحياة الزوجية الكدرة) (١) .

أما الأستاذ على أدهم فقد أشار الى حادثى زواج المقرى وتطليقه اشارة وجيزة تكاد تكون ألفاظها ألفاظ صاحب الخلاصة بلا تزيد ، فهو يقول : (وعاد الى مصر بعد الحج ، وتزوج بها من

(١) تراجم اسلامية : شرقية واندلسية لمحمد عبد الله عنان .

السادة الوفائية) ثم يقول بعد ذلك : (.. ثم طلق زوجته الوفائية وأراد العودة الى دمشق فأدركته الوفاة) (٢) .

هذه هي المصادر المصرية المتأخرة التي اهتمت بالترجمة للمقرى ترجمة وجيزة ، واهتمت بإبراز حادث الزواج والطلاق في قصد في الرواية واعتدال لا يخرج بها عن رواية المحبى . ولكننا نجد مصدرا تونسيا معاصرا هو الأستاذ « حبيب الجنحاني » يروى هذا الحادث على طريقته في المبالغة والتخيل فيقول : (وفي القاهرة تزوج المقرى من عائلة تتمتع بحظوة وجاه من اتصلت أسبابه بها . فقد نال شرفا عظيما في نظر الناس اذ ذاك . ولكن هذا الزواج لم يكن موقعا ، وهذه المصاهرة لم تعد بخير على المقرى ، فتضاعفت متاعبه ، وزاد قلقه . ويبدو أنه صعب عليه الفراق ، لما يرى فيه الناس من كفران بالنعمة ، وجحود للشرف الذى أحرز عليه المصاهرة . فصبر وتصبر . ولكن سبب القلق — فيما يبدو — له أثر لا يمكن تغافله) . وقد يكون لا جديد في هذا الكلام الذى قاله الأديب التونسى الا ما أضفاه عليه من تصوير وتجسيم . أما الجديد حقا فيما جاء به الأستاذ الجنحاني حول حادث تطليق المقرى لزوجته الوفائية فهو ما ذكره بعد هذا قائلا : (واهتزت القاهرة في يوم من الأيام لخبر تطليق الشيخ المغربى للوفائية . ونظر لأبى العباس نظرة احتقار . وبلغ الأمر الى درجة أنه لم يبق

(٢) من مقال بعنوان (المقرى) في مجلة الثقافة . العدد ٦٣ .

بقلم على ادهم .

في القاهرة من يسلم عليه الا رحل حديد ، كما أخبر طلبته
بالقرويين ..) .

ولا شك أن نبأ تطليق عالم مغربي مرفوع المكانة لسيدة من
بيت السادات يهز المجتمع القاهري ويثير فيه كثيرا من القيل
والقال ، ويطلق السنة الفارغين بالكلام ، ويجعل المحبين للسادة
الوفائية ينظرون الى صاحب هذا الحادث نظرة السخط والغضب
والبغضة ، فان الطلاق — على ما فيه من انتهاء لبعض المتاعب
الزوجية — هو أبغض الحلال الى الله ، علاوة على ما في ذلك العمل
الذي أقدم عليه صاحبنا المقرئ من تشهير بسيدة تنتمي الى بيت
عريق في المجادة والشرف . ولكننا لا نظن أن الأمر بلغ بأهل
القاهرة أن ينظروا الى المقرئ العالم الفقيه الراوية المذهب نظرة
احتقار ، كما يقول السيد الجنحاني . ولا نحسب أن هذه
العبارة وقعت في كتاب وقع للأستاذ الحبيب ولم يكن من حظنا
هنا في مصر أن تقع عليه . ونظن أن هذه العبارة هي من مبالغات
المؤلف وهو يصور لنا سخط المجتمع القاهري على طريقته ..

ولا شك ان بعض الحاسدين للمقرئ في مصر قد وجدوا في
حادث تطليقه لزوجته الوفاية فرصة للغمز في الرجل والطعن عليه
والخوض فيه ، فحاولوا أن ينقصوا من قدره على الرغم من
السمعة العلمية التي كان يتمتع بها في خلال دروسه بالأزهر ،
وهي سمعة يقول فيها قاضي القاهرة في وقته : (واستبشرنا من

أنفاس معارفه بعدد دروس قد درست ، فدعونا الله تعالى أن
يديم اقامته بهذه الديار تقعا للطلبة ، بل وللعلماء الأبرار (٣).

وأغلب الظن ان سوء الحظ قد لعب دورا كبيرا في اخفاق
الحياة الزوجية بين المقرئ وبين زوجته الوفائية . ولا شك أنه
ما كان يرجو أن تصير به الأمور بعد الاصحار الى بيت الوفائين
الى هذا المصير الذى أقلقه وأزعجه في أخريات حياته . فان بيت
السادة الوفائية بمصر من البيوت الكبيرة التى كان يلتمس الناس
من الاصحار اليهم جاها وشوكة . وكان العالم الفقيه ينفذ الى مصر
من بلاد المغرب أو المشرق ، فاذا ما اتصل ببيت السادات بصلة
من زواج أو رابطة من حماية ورعاية ارتفع جاهه وأقبل الناس
والزمان عليه .. فهذا العالم الفقيه عبد الرحمن بن بكار الصفاقسى
— من أهل تونس — وقد على مصر في أواخر القرن الثانى عشر
الهجرى ، وما هى الا أنه اتصل بالسيد أبى الأنوار شيخ السادة
الوفائية فى عصره اتصال تقرب ، فراج حاله وزادت شوكته على
أبناء جنسه من أهل المغرب ، وتردد الى الأمراء كما يذكر لنا
الجبرتى المؤرخ (٤) .

وقد كان من الممكن أن تروج حال صاحبنا المقرئ بعد اصهاره

(٣) المقرئ صاحب نفح الطيب — للحبيب الجنحاني — مطبعة
النهضة بتونس — ص ٥٣ .

(٤) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار — طبعة لجنة البيان
العربى — ج ٤ ص ٢٥٩ .

الى بيت الوفايين ، لو أن الرياح أتت بما تشتهي السفن .. ولكن
التوفيق خالف الرجل ، وخانه الحظ فعادت عليه المصاهرة بعكس
ما أراد أو ما كان يرجى له .

ومن عجب أن زواج المقرى من السيدة الوفاية قد أنجب
بنتا ، وكان من الممكن أن يؤكد ميلاد هذه الطفلة في أسباب الوئام
والصلح بين الأب والأم ، ولكن الله شاء أن يختار هذه البنت
لجواره الكريم وأن تكون وفاتها مقاربة أو مصاحبة لزمان وفاة
والدة المقرى في بلاد المغرب . فاتفقت بذلك العروة التى كان
يمكن أن تبقى على الزواج ، وشجعت وفاتها صاحبنا على التطلق
والتفريق ..

وقد عزاه أصدقاؤه في الشام من أمثال المولى أحمد شاهين
وشيوخ الاسلام المفتى العمادى والأديب يحيى المحاسنى في
الخطبين ، وواسوه برسائلهم الرقيقة في المصاين . وأشار المولى
الأديب الشاعر أحمد شاهين في تعزيتة الى الخثولة الوفاية للفقيدة
الصغيرة قائلا : (وأما المخدرة الصغيرة ، فالمصيبة بها كبيرة ،
اذ العمومة مقرية ، والخثولة وفائية ، فهى ذات النجارين ، وحائزة
الفخارين ، كأن سيدى — أعزه الله تعالى — لم يرض لها كفؤا
ومهرا ، فاختار القبر أن يكون له صهرا ..) (٥) .

ولا بأس هنا — والشئ بالشئ يذكر — أن تقول كلمة صغيرة

(٥) نفع الطيب . ج ١ ص ٥٥٥ .

عن بيت السادات أو بيت الوفائية الذين تزوج المقرئ منهم ، فهو بيت عريق عتيق يرجع الى السيد محمد وفاء الشاذلى المكنى بأبى الفضل وأبى الفتح ، وهو اذا كان من مواليد الاسكندرية سنة ٧٠٢ هـ فهو مغربى الأصل ، سلك طريق أبى الحسن الشاذلى ، ونظم الشعر الصوفى على طريقة ابن الفارض . وتزوج من بلدة أخميم من صعيد مصر وكان له فيها مريدون وأتباع كثيرون ، ثم عاد الى القاهرة فسكن الروضة على شاطئ النيل ، وأقبلت عليه الدنيا ، كما أقبل عليه الأمراء والأعيان ، واشتهر بالوعظ ، كما روى له الشعرانى كثيرا من المناقب . وقد كان حادث التتليق فى عهد خليفة السجادة الوفائية السيد أبى الاسعاد يوسف المتوفى سنة ١٠٥١ هـ (٦) .

ومن الطريف أن شيوخ هذه الأسرة الشريفة يكونون بكى لطيفة ، فمنهم أبو الفتوحات السيد عبد الخالق السادات ، وقد تولى خلافة السجادة الوفائية فى عصر اسماعيل ، وأبو الاقبال ، وأبو التسهيل ، وأبو الاسعاد ، وأبو المكارم ، وأبو الاشراق ، وأبو الامداد ، وأبو الفضل ، وأبو المراحم ، وأبو العباس ، وأبو الفتح — أو أبو الفضل — وهو رأسهم ووالدهم ، وقد توفى بمصر سنة ٧٦٥ هـ .

ويذكرنا زواج المقرئ غير الموفق من القاهرة بزواج السيد على بن عبد الله العلوى ، فقد كان والده أحد الوافدين على

(٦) مرآة العصر ص ١٨٦ .

مصر من توقاد ، وولد هو بمصر سنة ١١٧٣ هـ ، وشاء حظه النكد أن يوقعه في الزواج بامرأة قاهرية كانت تؤذيه وتشتمه ، وربما كانت تضربه ، وهو صابر عليها مقبل على شأنه (٧) . وقد كان الرجل من أجلاء العلماء بمصر في القرن الثاني عشر الهجرى . وعجيب أن تتسرب أسرار البيوت وخصوصياتها وما يجرى بين جدرانها الأربعة بهذه الصورة وتصبح حديثا يرويه المؤرخون! ومن حسن حظ المقرئ أن الألسنة ما كانت تلوّك ما يجرى بينه وبين زوجته من خلاف ..

على أن المسألة لا تعدو أن تكون من باب الحفظ التي لا حيلة للمرء فيها ، ولا قدرة له على تصريفها أو تعديلها بما يلائم منفعتة . فهناك علماء وفدوا على مصر وتزوجوا منها ، ورزقوا السعادة والتوفيق في زواجهم . فهذا الشيخ أبو الحسن المغربي شيخ رواق المغاربة بالأزهر في وقته ، قدم الى مصر في سنة ١١٥٤ هـ ، واتصل بوالد مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتي واتحد به ، وزوجه زوجة مملوكة مصطفى بعد وفاته ، فدام زواجهما قرابة أربعين عاما .

على أن طول مدة الزواج قد لا يعنى السعادة فيه والتوفيق معه . بل قد يعنى الصبر من أحد الجانبين — أو منهما معا — على معاناته . ولكن العبرة بما يحسه كل من الزوجين نحو صاحبه في حالتى الوجود والفقدان على السواء . فهذا العالم المتفنن

(٧) عجائب الآثار — ج ٣ ص ٣٠٥ .

الواسع الثقافة السيد مرتضى الزبيدي صاحب « تاج العروس
في شرح القاموس » ولد باليمن سنة ١١٤٥ هـ ، ونشأ بها ، ووفد
الى مصر بعد أن شوقه الشيخ عبد الرحمن العيدروس الى دخولها ،
بما وصف له من علمائها وأدبائها وأمرائها وما فيها من كريم
المشاهد .. فدخلها . وهنا حسنت حاله ، وتردد الأمراء والكبراء
على داره ، وحضروا مجالس درسه ، وأتخفوه بالهدايا ، وكاتبه
ملوك النواحي من الترك والحجاز والهند واليمن والشام والعراق
والسودان والمغرب . وتزوج سيدة قاهرية اسمها « زبيدة » ،
فأضفى الله عليهما من التوفيق وألقى بينهما من المحبة والمودة
والتراحم ما كان مضرب الأمثال ، فلما ماتت في سنة ١١٩٦ هـ
حزن عليها حزنا شديدا ، ودفنها قرب مشهد السيدة رقية ، ونصب
على قبرها مقاما ومقصورة ، وعمل ستورا وفرشا وقناديل ،
ولازم قبرها أياما كثيرة ، وجمع لها القراء والمنشدين ، وتقبل فيها
عزاء المعزين وسمع مراثي الشعراء في بيت صغير أقامه بجوار
قبرها ، وأجازهم على قصائدهم .. ورثاها بقصائد وجدها الجبرتي
المؤرخ بخطه بعد وفاته في أوراقه المدشنة ، وروى بعضها في
تاريخه . ولا بأس هنا من إيراد أبيات منها على سبيل المثال
لشعر الأوفياء لزوجاتهم :

خليلي هل ذكر الأحبسة نافع

فقد خاتني الصبر الجميل العواقب

وهل لى عود فى الحمى أم تراجع
لوصل بتلك الآنسات الكواعب
لقد رحلت عنى الحبية غسدة
وسارت الى بيت بأعلى السباب
أقول وما يدري أناس غدوا بها
الى اللحد: ماذا أدرجوا فى السبائب^(٨) ؟
تأخرت عنها فى المسير .. وليتنى
تقدمت لا ألوى على خرق نادب^(٩) !

لشد ما كنا نروم أن نسمع شعرا مثل هذا للمقرى فى زوجته
الوفائية ، ولكنه بعد حادث تطليقه اياها سمعناه يقول فى تحسر
على حاله هذه الأبيات :

تركت رسوم عزى فى بلادى وصرت بمصر منسى الرسوم
ونفسى عفتها بالذل فيها وقلت لها : عن العليا صومى
ولى عزم كحد السيف ماض ولكن الليالى من خصومى^(١٠)

(٨) كانت فى الجبرتنى ، وحلية البشر للبيطار : السباب ،
ولا معنى لها هنا . وصوابها : السبائب : جمع سببية وهى
الشقيقة الرقيقة من الكتان والمقصود بها لفائف الكفن .

(٩) حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر . لعبد الرزاق
البيطار . ج ٣ ص ١٥٠٢ .

(١٠) هكذا رواها المحبى فى خلاصة الأثر . وهى كروايات
المحبى المضطربة . وصورتها الصحيحة فى النفع ج ١ ص ٤٠ .

بين دمشق والقاهرة

دخل أبو العباس المقرئ القاهرة سنة ١٠٢٧ هـ بعد رحيله من المغرب . وقد بدأ منذ ذلك التاريخ زياراته للحجاز والقدس . أما الشام فلم يتجه عزمه إليها الا في سنة ١٠٣٧ ، أى بعد عشرة أعوام من اقامته في القاهرة .

وقد أحب المقرئ دمشق منذ حط بها رحاله للزيارة ، ووصفها بأنها (المدينة التى ظهر فضلها وبان ، دمشق الشام ، ذات الحسن والبهاء والاحتشام ، والأدواح المتنوعة ، والأرواح المتضوعة ، حيث المشاهد المكرمة ، والمعاهد المحترمة ، والغوطة الغناء والحديقة ، والمكارم التى يبارى فيها المرء شائئ وصديقه ، والأظلال الوريقة والأفنان الوريقة ، والزهر الذى تخاله مبسما والندى ريقه ! والقضبان الملد ، التى تشوق رائئها بجنة الخلد : بحيث الروض وضاح الثنايا أنيق الحسن مصقول الأديم وهى المدينة المستولية على الطباع ، المعمورة البقاع ، بالفضل والرباع :

تزيد على مر الزمان طلاوة

دمشق التى راقى بحلو المشارب

لها فى أقاليم البلاد مشارق

منزهة أقمارها عن مغارب

وقد دخل أبو العباس المقرئ قبل دمشق بلدانا كثيرة في المغرب
والمشرق ، فدخل مراكش ، وفاس ، ومصر ، والحجاز ، والقدس
ولكنه لم يلق ارتياحا الا في دمشق كما يقول لنا في « النفح » في
موضع بعيد جدا عن مقدمة الكتاب (١) . ولعل ايراد عبارته هنا
يكون أصدق في التدليل على شدة حبه وكثرة تعلقه بهذه العاصمة
الاسلامية العربية الكبرى التي شهدت عز الاسلام ومجده في
أيامه الأولى ، فقد نقل المقرئ عن ابن جبير الرحالة الأندلسي
المشهور كلاما له جيدا في وصف دمشق وذكر محاسنها ، وكأن
المقرئ لم يجد مدح ابن جبير لعاصمة الأمويين كافيا ، فعلق عليه
قائلا : (كل ما ذكر — يعنى ابن جبير — رحمه الله تعالى في وصف
دمشق الشام وأهلها فهو في نفس الأمر يسير . ومن ذا يروم عن
محاسنها التي اذا رجع البصر فيها اتقلب وهو حسير . وقد أظنبت
الناس فيها وما بقي أكثر مما ذكروه . وقد دخلتها أواخر شعبان
من سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة ، وأقيمت بها الى أوائل شوال
من السنة ، وارتحلت عنها الى مصر ، وقد تركت القلب فيها رهنا ،
وملك هواها مني فكرا وذهنا ، فكأنها بلدى التي بها ربيت ،
وقرارى الذي لى به أهل وبيت ، لأن أهلها عاملوني بما ليس لى
بشكره يدان ، وهأنذا الى هذا التاريخ لا أرتاح لغيرها من
البلدان ، ولا يشوقنى ذكر أرض بابل ولا بغداد ، فالله سبحانه
وتعالى يعطر منها بالعافية الأردن) .

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٥١١ .

والانسان حر في أن يحب من بلاد الله ما يشاء ، ولكن ماسر
كلف المقرئ بدمشق إلى هذا الحد مع أنه لم يقيم فيها إلا شهرا
وبعض شهر ؟ ان المقرئ نفسه في النص السابق الذي نقلناه عنه
يتولى الجواب عن هذا السؤال بما لا مجال فيه للزيادة عليه . فقد
عامله أهلها بما لا ينهض بشكره ، كأنها بلده وقراره . ولكن
هل ضنت عليه القاهرة بما كان يرجوه من الترحيب ويأمله من
التأهيل ؟

الواقع أن الله هيا للمقرئ في دمشق أدبيا وشاعرا نبلا كريما
هو أحمد شاهين القبرسي الأصل ، الدمشقي المولد ، وقد جمع
هذا الرجل إلى الأدب والشعر الجود والمروءة . فلما نزل المقرئ
بمنزل المغاربة بدمشق . وكان غير لائق بفضله وعلمه ، وعلم أحمد
شاهين بهذا ، أنزله في المدرسة الجقمقية ، واعتنى به اعتناء زائدا ..
وأرسل إليه بهدية وخمسين قرشا — من قروش ذلك الزمان
المبارك الرخي ! — وكتب إليه معذرا من قلة الهدية والعطية بيتين
من الشعر هما :

لو كان لي أمر الشـباب خلـعته

بردا على عـظيـك ذا أردان !

لكن تعذر بعث أول غـسـايتي

فبعثت نحـوك غاية الامكان

وقد وطأ أحمد شاهين لأحمد أبي العباس المقرئ أكناف

الاقامة في دمشق ، وسهر على رعايته وراحته ، وجمع له أدباء الشام وشعراءه في ذلك الوقت ، فالتفوا حوله ، وسمعوا اليه ، ورووا عنه ، وطارحوه الشعر وطارحهم . ولم يجد له في دمشق منافسا يخشاه ، مع عادة العلماء من التنافس بعضهم على بعض . فقد لقي من ذلك كثيرا في مراکش وفاس وتلمسان . ولعله لقي مثله في مصر ، ولهذا يكرر مدح الدمشقيين بقوله في موضع آخر من النفع : (فهم الذين نوهوا بقدرى الخامل ، وظنوا — مع تقصى — أن بحر معرفتى وافر كامل ، حسبما اقتضاه طبعهم العالى ، فلو شريت بعمرى ساعة ذهبت من عيشى معهم ما كان بالعالى) (٢) .

ولم تقع على نص يكشف لنا عن سوء علاقات المقرئ مع علماء مصر في وقته ، وان كان الرجل ظريف الحديث ، حلو المجالس ، مألوف العشرة . الا أن حادث طلاقه لزوجته الوفائية قد أثر بلا ريب في نظرتة الى القاهرة ، أو أثر في نظرة أهل القاهرة اليه . فلا شك أنهم سخطوا لما صنع . ولعل هذا مما جعله لا يود العيش في مصر أطول مما عاش ، وجعله ينوى العودة الى دمشق ليقيم فيها .

لقد استقبلت دمشق صاحبنا المقرئ بمظاهرة حماسية لم يعهد مثلها فيما دخل من بلدان ، وودعته بمظاهرة معبرة عن ألمها لفراقه ، وتمنيها لعودته . ومثل هذا اللقاء والوداع كليل أن

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٣٥ .

يكيف حكم الرجل على البلاد ، والتفضيل بينها ، والاشادة بحبها . وهذا ما فعله المقرئ ، فقد أسلفت اليه دمشق دينا رأى أن يؤدي بشكرها وذكرها والاعجاب بها ، والاشادة بمحاسنها ..

على أن محاسن دمشق لم تنس المقرئ محاسن القاهرة « التي تعجز عن وصفها القوافي والأسجاع » (٣) ، فقد روى كثيرا من الشعر الذي قيل في محاسنها ، ونيلها ، بل قيل في أهلها .. كالصفدي الذي يقول :

سقىا لمصر وما حوت من أنسها وأناسها

وقد كان من الممكن بعد عودة المقرئ الى القاهرة من دمشق أن يكتفى في تصنيف « النفع » بالشعر الذي رواه في مقدمة الكتاب مما قاله الشعراء مدحا لمصر ووصفا لمحاسنها . ولكن الرجل منصف وفي ، فلم تغط محاسن الشام على بصره ، وتجعله ينكر أو يهمل الشعر الذي قيل في أهل مصر ، وخاصة من شعراء عادوا الى القاهرة بعد زيارتهم للشام ، أى أن ظروفهم مثل ظروفه . ونرى الرجل هنا يروى هذا الشعر بعد حديثه عن دمشق بمناسبة حديثه عن رحلة ابن جبير الى الشام . ومما رواه قول الأديب محمد بن يوسف بن الخياط حين عاد الى القاهرة من الشام سنة ٧٣٣ هـ :

(٣) النفع ج ١ ص ٢٠ .

خلفت بالشام حبيبي وقد يمت مصرا لعنسا طارق
والأرض قد طالت فلا تبعدى بالله يا مصر على العاشق !
وقوله أيضا :

يا أهل مصر أتمسوا للعلا كواكب الاحسان والفضل
لو لم تكونوا لى سعودا لما وافيتكم أضرب فى الرمل !
ولا يكتفى المقرئ برواية هذا الشعر الذى يمدح أهل مصر
وناسها ، بل يعقب على روايته قائلا : (وذكرته برمته لحسن
مغزاه ..) (٤) .

ولكن المفاضلة بين العاصمتين عند الشعراء الذين يفضلون
هذا البلد على ذاك قد جرت أبا العباس المقرئ الى ايراد شعر من
هذا اللون ، كالبيتين اللذين رواهما للعز الموصلى ، وهما :

اليك حياض حمامات مصر ولا تتكثرى عندى بمين !
حياض الشام أحلى منك ماء وأطهر وهى دون القلتين !
ولكن العز الموصلى لم يقل هذا الكلام الا دفاعا عن الشام
وردا على الشاعر المصرى ابن نباتة القائل :

أحواض حمام الشآ م ألا اسمعى لى كلمتين
لا تذكرى أحواض مصر ر فانت دون القلتين .. !
وهكذا كان الشر بالشر ، والبادى أظلم !!

(٤) نفع الطيب ج ١ ص ٥١٣ .

ولم يسكت المقرئ في إirاده لهذه المفاضلات والمفاخرات بين دمشق ومصر ، ولم يلزم جانب الحيدة ، بل كان يعلق أحيانا بما يدل على هواه وميله نحو دمشق ، فلما روى قول النواجي الأديب الشاعر المصري :

مصر قالت : دمشق لا تفتخر قط باسمها
لو رأت قوس روضتي منه راحت بسهمها ..
علق عليه قائلا انه من باب تفضيل الوطن من حبه .. ولم يكتف بهذا بل صرح بذكر شيوع الخلاف قديما وحديثا في المفاضلة بين مصر والشام ^(٥) . وهنا وقف موقف المحامي المدافع عن دمشق في صراحة وتحمس . فلما روى قول بعضهم :

تجنب دمشق ولا تأتها وإن راقك الجامع الجامع
فسوق الفسوق بها قائم وفجر الفجور بها طالع
علق عليه قائلا : (فلا يلتفت اليه ، ولا يعول عليه ، اذ هو مجرد دعوى خالية عن الدليل ، وهي من نزعات بعض الهجائيين الذين يعمدون الى تقييح الحسن الجميل . وما زالت الأشراف تهجى وتمدح ، ولا يقابل ألف مثن عدل بفاسق يقدح ..) .

ومن ظرف المقرئ وخفة روحه وسماحة نفسه انه روى عقب هذا شعرا لبعض الأندلسيين — وهو أبو بكر محمد بن قاسم — يصف رياضها بالجنة ، وأنهارها بالبسة ، ووجوه أهلها بالقطوب ، فيقول :

(٥) المصدر نفسه ص ٥١٩ .

دمشق جنة الدنيا حقيقا ولكن ليس تصلح للغريب
بها قوم لهم عدد ومجد وصحبتهم تؤول الى الحروب!
ترى أنهارهم ذات ابتسام وأوجههم تولع بالقطوب
أقمت بدارهم سستين يوما فلم أظفر بها بفتى أديب .. !

ولكن المقرئ يعلق على هذا الشعر الهجائي في دمشق قائلا :
(والجواب واحد ، ولا يضر الحق الثابت انكار الجاحد) وقوله :
والجواب واحد يشير به الى جوابه عن هجاء الشاعر الذي قبله ..

ولا ينقطع هنا نفس المقرئ في رواية ما قيل من شعر في المفاخرة
بين العاصمتين الحبيبتين ، ولكن أمانة الرجل في الرواية من
ناحية ، وخفة روحه وذوقه من ناحية أخرى يقتضيان أن يروى
الشعر الأخف محملا في هجاء دمشق ، كقول القاضي المصري
محيى الدين بن عبد الظاهر :

لا تلوموا دمشق ان جئتموها
فهي قد أوضحت لكم ما لديها !
انها في الوجوه تضحك بالزهر
ر لمن جاء في الربيع اليها
وتراها بالثلج تبصق في لحس
ية من مر في الشتاء عليها !!

هذا هو موقف أبي العباس أحمد المقرئ من القاهرة التي
آوته ، ومن دمشق التي كرمته حين استقبلته ، وقد حفظ الرجل

للقاهرة فضلها ، كما حفظ لدمشق رعايتها له ، ولقاءها إياه ،
وحفاوة أنديةها ومجالس سمرها به . وعلى الرغم من الجرح الذي
أصيب به في حادث تطليقه بالقاهرة فإنه لم ينكر لها فضلا ،
ولم يجحد لها مزية ، بل رأى الاكتفاء بالانطواء على جراحه من
التطليق و وفاة ابنته الطفلة وانعزاله عن المجتمع القاهري ، واتجه
الى دمشق بفكره ينوي العودة اليها « للتوطن بها » كما يذكر
صاحب خلاصة الأثر ^(٦) . ولسان حاله — كما يقول — ينشد
قول بعض الأكابر ^(٧) :

نحن في مصر رهن شوق اليكم
هل لكم بالشآم شوق الينا ؟
فـعـجـزنا عن أن ترونا لديكم
وأبيتم عن أن نراكم لدينسا !
حفظ الله عهد من حفظ العهد —
د ، ووفى به كما قد وفينسا

(٦) خلاصة الأثر — ج ١ ص ٣١١ .

(٧) نفع الطيب ج ١ ص ٥٦٥ .

شيوخه وروايته عن عمه

يحدثنا المقرئ في مقدمة كتابه « أزهار الرياض » عن نبذة من أيام شبابه الأول في مدينة تلمسان التي ولد فيها ، وعن مجالس الدرس والرواية التي كان يتردد عليها ، ويلازمها ، وعن عهد نسخ الكتب وتحجير الأوراق ، فيقول في عبارته المسجوعة : (وقطعنا نبذة من الشباب ، في مواطن الأحباب ، ما بين دراسة ودراية ورواية ، وممارسة أمور تبعد عن طريق الغواية ، وتحجير طروس ، وملازمة دروس ، ومثول بين يدي أشياخ مجالستهم نامية الغروس ، وخصوصا شيخهم الذي فضله لا يفتقر الى دلاله ، عمنا مفتيها سيدي سعيد بن أحمد المقرئ شكر الله خلاله) .

ولقد حرص المقرئ في هذه الحقبة من شبابه أن يحفظ كل ما يستطيع حفظه من أمهات كتب الدين والحديث ، وأن يقرأ كثيرا من كتب التاريخ والأدب ، فقد كان على اهتمامه بمسائل الفقه والدين نزاعا الى الأدب والأخبار والأشعار . ولا يمكن أن نخصص له اتجاها معينا في الدراسة والرواية والقراءة ، فقد كان يقرأ كل كتاب يقع له ، بل كان يسعى الى الكتب في أماكنها ، كما سعى جاهدا الى مكتبة السلطان زيدان الخاصة يعمل منها وينهل .

وما سمع المقرئ بعالم أو شيخ يفيد منه ويروى عنه إلا سعى إليه وأفاد منه . وإذا كانت مدينة تلمسان في ذلك العهد تزدهم بحفنة كبيرة من العلماء الرواة ، فإن المقرئ لم يقصر همه عليها ، ولم يكسر نشاطه العلمي على شيوخها وعلمائها ، فقد شد الرحال إلى فاس سنة ١٠٠٩ في أول عهده بالشباب ، ورجع إلى تلمسان ، ثم عاد إلى فاس مرة ثانية سنة ١٠١٣ ، وهي العودة التي بقي بها في هذه العاصمة أربعة عشر عاما ، حتى ارتحل إلى المشرق سنة ١٠٢٧ هـ .

وفي مدينة فاس لم ينقطع صاحبنا عن الأخذ والتلقى عن علمائها ومحدثيها ورواتها ، وهناك اتصل بمفتيها الشيخ أبي عبد الله محمد بن قاسم القيسي المشهور بالقصار ، وروى عنه بعض أحاديث النبي عليه السلام ، ومنها الحديث النبوي : (من أصبح آمنا في سربه ، معافى في بدنه ، معه قوت يومه فكأنما سقت له الدنيا بحذاقها) .

ولا بأس أن نقف هنا وقفة قصيرة عند الشيخ القصار فهو نموذج من علماء المغرب في القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر ، وقد توفي سنة ١٠١٣ هـ — أي بعد اتصال المقرئ به بأربع سنوات ، ولا يعلم تاريخ مولده . وكان القصار من جماعة العلماء الذين اجتمعوا في مدينة فاس بعد وفاة السلطان المنصور وعقب دفنه مباشرة لأخذ البيعة لولده أبي المعالي زيدان سنة ١٠١٢ هـ . وكان المنصور — سلطان المغرب العظيم —

قد عهد بالبيعة قبل وفاته الى واحد من أبنائه الثلاثة : وهو « الشيخ » الذي لم تصلح سيرته .

ولقد ذهب القصار والقاضى ابن أبى النعيم — قاضى الجماعة بفاس — فى الدعوة الى زيدان بن المنصور الى أقصى حد ، حتى لقد أجازا بفتوى صدرت منهما قتال أخيه الآخر أبى فارس الذى خرج عليه ، استنادا الى حديث نبوى (١) .

ولقى الشيخ القصار من هذه البيعة لزيدان ، والفتوى ضد أبى فارس عنتا كبيرا على الرغم من كبر سنه ، فلما استبد « الشيخ » بالأمر وانفرد بالسلطة مع وجود السلطان زيدان ، استدعى القصار وشريكه فى الفتوى القاضى ابن أبى النعيم ، ولامهما على مبايعة زيدان وتنحية أخويه ، وعزم « الشيخ » على أن ينكل بهما ، ولكن الله أراح القصار فاختره الى جواره وهو فى طريقه الى التعذيب ..

وقد تولى القصار الخطابة والافتاء فى فاس زمنا ، ولكنه لم يسلم ، على عادة أبناء الزمان ، من الحسد عليه ، والسعى به عند السلطان ، فقد سعى به تلميذه أبو الحسن بن عمران السلاسى حتى زحزحه عن الخطابة والفتوى ، وتولاهما مكانه زمنا يسيرا ، حيث أعيد القصار الى منصبه (٢) .

(١) الاستقصا للسلاوى ج ٦ ص ٤ .

(٢) الاستقصا ج ٦ ص ١٤ .

وكان المقرئ يجلس شيخه أبا عبد الله القصار ، كما كان يجلس
شيخا له آخر هو أحمد بابا التنبكتي الفقيه السوداني المشهور
وصاحب كتاب « نيل الابتهاج ، بتطريز الديباج » في تراجم رجال
المالكية . وقد التقى المقرئ بأحمد بابا التنبكتي في مدينة فاس
حيث أوى إليها هذا المكافح الأفريقي الذي عارض في احتلال
المراكشيين لبلدته تنبكت أو تمبكتو — كما نسميها اليوم —
بغرب أفريقية . وقد كانت إقامة أحمد بابا بفاس بعد أن ظل
معتقلا في مدينة مراكش إلى سنة ١٠٠٤ هـ . وهنا اختار المقام بمدينة
فاس مبعدا عن وطنه إلى أن أذن له بالعودة إليه سنة ١٠١٤ هـ .

ولا شك أن لقاء المقرئ مع أحمد بابا التنبكتي كان فيما بين
سنتي ١٠٠٩ هـ ، و ١٠١٤ هـ ، لأن أول عهد ارتحال المقرئ إلى فاس
كان سنة ١٠٠٩ هـ . ولا شك أن لقاءهما كان في فاس ، ولم يكن
في مراكش لأن أحمد بابا ترك مراكش سنة ١٠٠٤ هـ .

وكان أحمد بابا التنبكتي طراز نادرا من علماء أفريقية
الغربية ، بل من علماء المغرب ، بل من علماء الإسلام ، ويقول
أبو عبد الله المراكشي في ترجمته له بكتابه المسمى الفهرست :
(كان أخونا أحمد بابا من أهل العلم والفهم والادراك التام
الحسن ، حسن التصنيف ، كامل الحظ من العلوم فقها وحديثا
وعربية وأصليين وتاريخا) (٣) .

(٣) خلاصة الأثر ج ١ ص ١٧١ .

وما ذكر المقرئ شيخه أحمد بابا التنبكتي في رواية خبر عنه ، أو نقل رأى له إلا خصه بعبارات التقدير ، ودوام الدعاء له . فحين أشار الى رأيه في الامام المجدد ، وهل يكون من العلماء ، أو من الأولياء ، أو من الملوك قال عنه : (وسمعت شيخنا الامام ، بقية الناس ، سيدى أحمد بابا السودانى التنبكتي ، أبقي الله جلاله ، وأدام عزته وحفظ خلاله يقول : ان ذلك يكون في كل قطر بحسبه ، وليس من شرطه أن يعم الدنيا أو غالبها) (٤) .

وفي موضع آخر من « أزهار الرياض » يذكر المقرئ شيخه أحمد بابا التنبكتي ناقلاً بعض النصوص عنه ، قائلاً : (وقد نقلها شيخنا الامام سيدى أحمد بابا ، أبقاه الله ، في تكميله لديباج ابن فرحون) (٥) .

هذان اثنان من شيوخ المقرئ في المغرب ، ولا بد أن نضيف اليهما شيخاً ثالثاً أفاد منه المقرئ كثيراً وتعلم عليه وتلمذ له ، وهو عمه الشيخ سعيد بن أحمد المقرئ مفتى فاس .

وندع أحمد المقرئ يصف لنا عمه سعيداً بقوله : (فهو شيخ أولئك الأعلام الذين ورثوا العلم عن غير كلاله ، وعمرؤا ربوع المجد وتقيأوا ظلاله ، وأرشدوا الى سبل الهدى وأزاحوا عن الضلالة ، وعمرت أرضهم بكل مجد وجلالة) .

(٤) أزهار الرياض ج ٣ ص ٥٦ .

(٥) صفحة ٣٧ من الأزهار .

وفي أزهار الرياض وتفتح الطيب يروى أحمد المقرئ عن عمه الشيخ سعيد بعض الأخبار والأشعار . فهو يتذاكر معه في طرائف الأدب ، كما يتناقش معه في مسائل العلم . وقد تذاكر معه مرة — من تلك المرات التي كان يجلس فيها إليه — مسألة وجوب إخفاء المرء سنه عن الناس لمنافاة ذلك للمروءة . فقد كان أبو عبد الله جد المقرئ يعلم تاريخ مولده بتلمسان . ولكنه رأى أن يغفل ذكره . وأن يصفح عنه في أعلام الناس به . وروى جد المقرئ لتأييد وجهة نظره في إخفاء المرء لسنه هذا الخبر الذي نوردناه هنا لطرافته . فقد كنا نعلم أن المرأة دائما هي التي تخفي سنها . وتستتر عمرها ، حتى يظل الناس دائما في عماية من أمرها .. وحتى لا تبدى عوارها بكبر سنها .. ولكن هذا الخبر الذي رواه جد صاحبنا المقرئ يؤكد لنا أن الرجال ، بل الأئمة الأعلام يخفون أمر سنهم ، وتواريخ ميلادهم .. !

قال جد المقرئ : (كان مولدى بتلمسان .. وقد وقفت على تاريخ ذلك ، ولكنى رأيت الصفح عنه ، لأن أبا الحسن بن مؤمن ، سأل أبا طاهر السلفى عن سنه ، فقال : أقبل على شأنك — يعنى انه فر من الجواب على السؤال — فانى سألت أبا الفتح بن زيان عن سنه ، فقال : أقبل على شأنك ! ، فانى سألت على بن محمد اللبان عن سنه ، فقال : أقبل على شأنك ! وما تزال الرواية والسند يرتفع حتى يصل الى بعض أصحاب الإمام الشافعى الذى يقول ؛ فانى سألت الشافعى عن سنه فقال : أقبل على شأنك ! فانى سألت

مالك بن أنس عن سنه فقال : أقبل على شأنك ، فليس من المروءة للرجل أن يخبر بسنه .. (٦) . وهنا لا يكتفى المقرئ الحفيد برواية هذا الخبر عن جده الشيخ أبي عبد الله ، بل يزيد عليه بيتين في هذا المعنى أنشدهما إياه عمه الشيخ سعيد . وندع المقرئ يروي الخبر قائلا : (ولما تذاكرت مع مولاى العم الامام ، صب الله تعالى على مضجعه من الرحمة والغمام ، هذا المعنى الذى ساقه مولاى الجد رحمه الله تعالى ، أنشدنى لبعضهم :

احفظ لسانك لا تبج بثلاثة

سن ، ومال — ما استطعت — ومذهب

فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة

بمكفر ، وبحاسد ، ومكذب !)

ويروى المقرئ صاحب نفح الطيب عن أستاذه وشيخه وعمه الشيخ سعيد المقرئ بعض الشعر ، كمثل ذلك الشعر الذى نظمته « الواسطى » فى مدح مجد الدين الفيروز أبادى صاحب « القاموس المحيط » . وقد روى المقرئ هذا الشعر فى كتابه « أزهار الرياض » (٧) ، وذكر عمه ووصفه بأوصاف التقدير والاجلال قائلا : (وأنشدنا فيه لغيره ، سيدنا ومولانا شيخ الشيوخ ، وخاتمة أهل الثبوت والرسوخ ، ملحق الأحفاد

(٦) نفح الطيب ج ٣ ص ١١١ .

(٧) الجزء الثالث ص ٤٧ .

بالأجداد ، المبرز على النظراء والأنداد ، مفتى تلمسان وأصقاعها ،
ومعتمد أهل أقطارها وبقاعها ، عمنا سيدى سعيد بن أحمد
المقرى ، صب الله عليه شآبيب رضوانه ..) .

وقد كانت المذاكرات الشعرية وروايتها متبادلة بين المقرى
وعمه ، فالعم يروى أكثر الأحيان ، وابن الأخ يروى بعض الحين ،
والعم الأستاذ والمعلم يهتز وينفعل لما يرويه ابن أخيه من شعر ،
كما يحدثنا المقرى قائلا : (وقد كنت رأيت بتلمسان تخميسا
لبعض الأكابر على قصيدة سيدى ابراهيم هذه ، وأنشدته الشيخ
مولانا العم ، شيخ الاسلام ، سيدى سعيد بن أحمد المقرى ،
رضوان الله عليه ، فاتفعل لذلك غاية واهتز !) (٨) .

ويظهر ان الاهتزاز والانفعال بالشعر الجيد هما من موارث
أسرة المقرى ، التى كان يجمع أفرادها المعروفون بين الفقه والدين
من ناحية ، وبين التذوق الأدبى من ناحية أخرى .

ولن نمضى أكثر من هذا فى ذكر المواطن من مؤلفات المقرى
ذكر فيها انه نقل عن عمه أو روى عنه ، أو سمع منه أنشادا
أو أنشد له ، فتلك سبيل تطول .. ولكننا نكتفى فى ختام هذا
الفصل بذكر بيت من اجازة علمية للمقرى ، يشير فيها الى انه
أخذ صحيح البخارى عن عمه سعيد :

وقد أخذت جامع البخارى عن عمى الحائز للفخار

(٨) ازهار الرياض - ج ٢ ص ٣٠٩ .

منح الإجازات العلمية

والتلمذ عليه

قبل أن نتحدث عن الاجازات العلمية التي كان يمنحها أحمد المقرئ تلاميذه في الغرب والشرق ، أو كانوا يطلبونها منه يجدر بنا أن نمهد بين يدي الموضوع بكلمة عن الأصل في هذه الاجازات . وقد تناول العالم الشيعي الشيخ أغا بزرك — وهو من علماء النجف المعاصرين — موضوع الاجازة في جزء من موسوعته الكبيرة التي عنوانها « الذريعة الى تصانيف الشيعة » . وفيها يسجل أقدم اجازة علمية — وفق ما رآه هو — صدرت في سنة ٣٠٤ هـ من العالم محمد بن عبد الله بن جعفر الحميري ، الى أبي عامر سعيد بن عمرو . وفي هذه الاجازة يطلق الأستاذ لتلميذه أن يروي عنه كتابه . أي أنه أجاز له أن يروي عنه هذا الكتاب^(١) .

وقد كان يظن أن هذه الاجازة العلمية هي أقدم ما وصل إلينا . ولكن علامة الشام الأستاذ الامام المفسر الشيخ محمد جمال الدين القاسمي قد سبق الى تسجيل أقدم اجازة عثر عليها ،

(١) تاريخ التربية الاسلامية — للدكتور أحمد شلبي —

وقد نقلها عن شرح ألفية العراقي نقلا عن الامام أبي الحسن محمد ابن ابي الحسين الوزان . وهي اجازة من ابن أبي خيثمة الحافظ المؤرخ الى تلميذه أبي زكريا يحيى بن مسلمة يقول فيها : (قد أجزت لأبي زكريا يحيى بن مسلمة أن يروى عنى ما أحب من كتاب التاريخ الذى سمعه منى أبو محمد القاسم بن الأصبغ ، ومحمد بن عبد الأعلى ، كما سمعاه منى . وأذنت له فى ذلك ، ولمن أحب من أصحابه . فان أحب أن تكون الاجازة لأحد بعد هذا ، فأنا أجزت له ذلك بكتابى هذا) . ثم وقع الشيخ ابن أبي خيثمة هذه الاجازة المكتوبة وسجل تاريخها فى شوال من سنة ست وسبعين ومائتين ..

وهكذا ترى قدم تاريخ هذه الاجازة وسبقها على تاريخ اجازة محمد بن عبد الله بن جعفر بيضعة وعشرين عاما .

والاجازة مشتقة من الجواز ، أو التجوز ، وهو التعدى وتجاوز الشيء . فكأن الشيخ أو الأستاذ عدى روايته حتى أوصلها للراوى عنه ، وهو فى هذه الحالة تلميذه .

وقد حدد ابن فارس اللغوى معنى الاجازة من وجهة نظر اللغة فى كتابه الخاص بالمصطلح قائلا : (يعنى بالاجازة فى كلام العرب ، مأخوذ من جواز الماء الذى يسقاه المال ، من الماشية والحرث . يقال منه : استجزت فلانا فأجازنى ، اذا أسقاك ماء

لأرضك أو ماشيتك .. كذلك طالب العلم ؛ يسأل العالم أن يجيزه علمه فيجيزه إياه . فالطالب مستجيز ، والعالم مجيز (٢) .

وقد كانت « الاجازة » أولا في الحديث النبوى . صيانة له ، وتحريزا من وقوع الخطط فيه ، وحدا لكل مجترىء على الخوض فيه بلا علم . وكان طالب الحديث لا تتم له رواية الحديث الا باجازة شيخه . وتوسع الشيوخ والعلماء في الاجازات فمنحوها لكل طالب الرواية في الفقه والتاريخ والسير والأدب والشعر وغيرها من سائر العلوم والفنون .

وقد كان الشيوخ يكتبون لتلاميذهم ما يفيد بأنهم — أى التلاميذ — أتموا قراءة الكتاب عليهم ، وبهذا يجيزونهم للتدريس والرواية عنهم . وكثيرا ما كان الطلاب يطلبون من شيوخهم أن يجيزوهم . وكان هذا الطلب يسمى استجازة .

وسنجد في تاريخ المقرئ انه كان يمنح تلاميذه في المغرب وفي المشرق هذه الاجازات عنه ، وخاصة في رواية الحديث . كما كان التلاميذ يستجيزونه فيجيزهم . وقد روى لنا المقرئ صورا من هذه الاستجازات التى كان يكتبها أصحابها بالشعر لا بالنثر . وقد لجأ طلبة العلم الى استعمال الاستجازات الشعرية منذ القرن الرابع الهجرى . كما لجأ الشيوخ والأساتذة أنفسهم الى كتابة الاجازة شعرا ، وذلك ردا على الاستجازة الشعرية ،

(٢) قواعد التحديث . للأمام المرحوم محمد جمال الدين القاسمى ص ٢٠٥ طبعة الحلبي .

وذلك من باب المراعاة في الجواب ، حتى لا يكون الشيخ أقل من تلميذه في الخطاب ..

وكما كان الرجل يطلب الاجازة « أو يستدعى » الشيخ ، لنفسه ، كان يطلبها لأولاده أو اخوته أو بعض أقاربه . ومن طريف ما لقيناه من ذلك ذلك « الاستدعاء » أو تلك « الاستجازه » التي طلبها ابراهيم العمادى — قريب مفتى الشام — لأكبر اخوته وأوسطهم وأصغرهم . وقد وجه الطالب هذا الاستدعاء الشعرى الى المقرئ قائلا في مطلعها :

فازت دمشق الشام بالمقرئ الأملعى ، اللوذعى العبقري
ثم يخلص من المدح الى طلب الاجازة لاخته قائلا :

مولاي ! يا من در ألفاظه صحاحها تزرى على الجوهرى !
أجازة ترفل من فضـلها فى ثوب عز ، وردا مفخر
مسبلة الذيل على أكبر وأوسط الأخوة والأصغر !
أطل لنا أنشادها بل أطب وانظم لنا من درها وانثر !

وما أخطأ المقرئ أمل الطالب ، ولا أمنية الراغب ، فقد كتب له اجازة شعرية تقارب الثمانين بيتا (٣) ولم تكن الاجازة التي كتبها أحمد المقرئ لاخته ابراهيم العمادى بدمشق هي الوحيدة التي منحها طلبته في دمشق الشام ، فقد كتب أيضا اجازة شعرية

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ٥٣٣ .

للأديب يحيى المحاسنى تبلغ بضعة وأربعين بيتا (٤) واستجازه
بالشعر أيضا الشيخ المدرس محمد بن يوسف كريم الدين
الدمشقى، فأجازه بأجازه شعرية تبلغ أبياتها بضعة وعشرين بيتا .
واستجازه الشيخ حسن البورينى بأبيات شعرية يبلغ عددها خمسا
يقول فيها :

| | |
|------------------|-------------------|
| يا سيدى وملادى | وعالم الثقلين |
| ومن غدا بمكان | علا على النيرين |
| أجزت بالدرس قوما | فاقوا به الفرقدين |
| فزين العبد أيضا | من مثل ذاك بزين |
| وان يكن فى ختام | فذاك قرة عينى ! |

فأجازه المقرئ أيضا بأجازه شعرية تبلغ ستة وعشرين بيتا .
وكذلك فعل المترجم له مع الشيخ عمر القارى الدمشقى حين
استجازه وهو مستوفى للعودة الى مصر ، فكتب له اجازة شعرية
على عجل .. أما الأديب الشاعر الدمشقى المولى أحمد بن شاهين ،
الذى نزل المقرئ فى كنفه ورعايته ، فقد استجازه رواية كتابه
(اضاءة الدجنة ، فى عقائد أهل السنة) وغيره من الكتب ، فكتب
له اجازة شعرية تبلغ سبعة وخمسين بيتا استهلها بالثناء عليه ،
والاشادة بفضله .

وقد تلقى تلاميذ المقرئ أجازاته هذه بالقبول والرضا والفرح ،

(٤) المصدر نفسه ص ٥٣٥ .

وافتحروا كل الفخر باحرازهم لها ، وحصولهم عليها . فالأديب
المولى أحمد شاهين يلهمج بأمالى المقرئ قائلا : (وما زلت ألهمج
بما أفادنيه ، شيخى من أماليه ..) ، والأديب يحيى المحاسنى
الدمشقى يعترف له من رسالة بأنه (تلميذه الذى لم يزل مغترفا
من فيض علومه ، معترفا بحقه) ، ثم يعود فيؤكد له هذه التلمذة ،
والافتخار بالتلمذ عليه قائلا : (ان الراقم لهذه الصحيفة .. هو
تلميذكم ، من تشرف بدرسكم ، وافتحر باجازتكم) .

وكما كان أهل المشرق يقدرّون أستاذية المقرئ ومشيخته ،
كذلك كان أهل المغرب ، فقد اعترفوا له بها من غير مكابرة
أو نزاع . وتؤكد لنا ذلك رسالة بلغته من أحد تلاميذه العلماء
بالمغرب — وهو بمصر — يعترف فيها بهذه الأستاذية قائلا :
(.. كبير زمانه دون منازع ، وعالم أوانه من غير منكر ولا مدافع ،
شيخنا ومعلمنا ومفيدنا وحبيب قلوبنا مولانا شيخ الشيوخ
أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ ..) .

لقد كان المقرئ صاحب تفح الطيب شيخا ومعلما ينشر العلم
فى كل مكان ..

تحت قبة النسر

في الجامع الأموي

قبل أن نمضي في الغرض الذي أردنا له من هذا الفصل — وهو وصف مجلس للدرس ألقاه الشهاب المقرئ في الجامع الأموي بدمشق — يجدر بنا أن نقول كلمة عن قبة النسر التي جعلناها عنواناً لهذا الفصل من الكتاب .

والجامع الأموي معروف مشهور . وبانيه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، وقد مات الوليد قبل أن تتم زخرفة المسجد ، فأكملها أخوه والخليفة من بعده : سليمان بن عبد الملك ووجد فيه أشياء آخر .

وقد كان المسجد الأموي قبل الاسلام معبداً ، فلما دخل المسلمون دمشق أخذوا النصف الشرقي من هذه الكنيسة القديمة ، وما زالوا بالنصف الغربي حتى أخذوه وعوضوا النصراني عنه أربع كنائس أخرى . ولما احتاج الوليد ابن عبد الملك في عمارة المسجد الأموي الى صناع كثيرين طلب من ملك الروم أن يمدّه بحاجته منهم ، فبعث اليه مائتي صانع .. وتقع « قبة النسر » في الجهة القبليّة من الجامع الأموي .

ويقول المؤرخون ورجال الفنون الإسلامية انه ليس في دمشق أعلى ولا أبهى منها منظرا . ولها ثلاث منائر ، كانت احداهن — وهي الكبرى — ديدبانا للروم قبل الفتح العربى ، فأقرت على ما كانت عليه وصيرت منارة .

ويتصل الحديث عن قبة النسر في المسجد الأموى بدمشق بحديث عن قبة أخرى هناك تقع في الجهة الغربية من صحنه . ويسمونها الناس قبة عائشة — كما يذكر ذلك صديقنا العالم الجليل المرحوم الأستاذ محمد كردعلى في « خطط الشام » — أما المحبى — صاحب خلاصة الأثر — فيسميها القبة الباعونية .

ونستطيع أن نجمع من هاتين التسميتين اسم « عائشة الباعونية » الشاعرة الأدبية الفقيهة الدمشقية ، التى أدركت اثنين وعشرين عاما من القرن العاشر الهجرى ، فقد أجزت بالفتوى والتدريس — كما يذكر نجم الدين الغزى في « الكواكب السائرة » ، وابن العماد الحنبلى في « شذرات الذهب » — وليس بعيد أنها كانت تجلس في تلك القبة الغربية فنسبت اليها . ولم تسعفنا المراجع بما يثبت أن عائشة الباعونية جلست للتدريس في تلك القبة .

والذى ساقنا الى الحديث عن قبة النسر وقبة الباعونية في الجامع الأموى ، هو ذلك الخبر الذى انفرد بروايته فيما بين أيدينا من مصادر ، المؤرخ المحبى صاحب « خلاصة الأثر » ، فقد روى

لنا في الجزء الأول من خلاصته ، وفي خلال الترجمة للمقرى ،
صورة طريفة لمجلس للدرس ألقاه الشهاب المقرى في المسجد
الأموى في أثناء زيارته لدمشق سنة ١٠٣٧ هـ ، تلك الزيارة التي
فرح بها أهل الشام للقاء عالم مغربى حلوا المحاضرة ، واسع
الرواية ، حسن الحديث ، واستقصوا مدتها التي لم تزد على
الشهر الا قليلا ، كما يخبرنا بذلك الأديب الشيخ أبو بكر العمرى
شيخ أدباء دمشق في عصره — كما نعتة المقرى — من قصيدة
يمدح بها صاحب نفح الطيب قائلا :

وفي دمشق الشام دام سعادها
كان له بها المقام الأسعد

العلماء أجمعوا جميعهم
على معاليه التي لا تجحد

أقام شهرا أو يزيد ، واتثنى
وفي الحشا منه المقيم المقعد (١) !

ولقد عبر شيخ الاسلام عبد الرحمن العمادى مفتى الحنفية
بدمشق عن قصر هذه الزيارة في رسالة بعث بها الى المقرى قائلا
على طريقة السجع التي كانت بدعة ذلك العصر : (.. وظهرت
شمس فضله — يعنى المقرى — من الجانب الغربى فبهرت
بالشروق ، وأصبح كل صب وهو الى بهجتها مشوق ، زار الشام

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٥٤٤ .

ثم ما سلم حتى ودع ، بعد أن فرغ بروضها أفنان الفنون
فأبدع ..) .

ويذكر لنا المحبى المؤرخ فى وصفه لهذا الدرس الذى ألقاه
المقرى فى الجامع الأموى أن صاحبنا ألقى صحيح البخارى بالجامع
تحت قبة النسر بعد صلاة الصبح . فبدأ الناس يتكاثرون على
الدرس يوما بعد يوم حتى ضاقت بهم تلك القبة على سعتها ،
فخرج المقرى الى صحن الجامع لعله يكون أكثر رحابا ، وأوسع
جنابا ، تجاه القبة المعروفة بالباعونية . ولم يحتشد طلبة العلم
فى دمشق وحدهم لحضور هذا الدرس الذى يلقيه عالم زائر
مغربى وفد الى بلدهم ، بل حضره غالب أعيان علماء دمشق على
اختلاف منازلهم فى العلم . وليس هذا غريبا . فإنا نجد فى دروس
العلم بالأزهر على توالى عصوره أن كبار العلماء كانوا يشهدون
دروس بعضهم بعضا . وكانوا يعدون ذلك تكريما علميا لصاحب
الدرس من ناحية ، وإفادة من علمه من ناحية أخرى .

ويؤكد لنا المحبى المؤرخ أن طلبة العلم بدمشق لم يتخلف
منهم واحد عن حضور درس المقرى فى الجامع الأموى .

ولما كان اليوم الذى يختتم فيه المقرى صحيح البخارى فى
حديث رسول الله عليه السلام احتشد الألوف من الناس — وهذه
هى عبارة المحبى وتقديره العددي — فكان يوما حافلا جدا .
واستعبر الناس بذكر النبى فعلت أصواتهم بالبكاء . وهنا

لم يجدوا مناصا من ثقل حلقة الدرس الى وسط صحن الجامع الى الباب الذى يوضع فيه العلم النبوى فى الجمعات من شهر رجب وشعبان ورمضان .

ويظهر ان الشهاب المقرئ أحب أن يزيد على املاء صحيح البخارى بكلام فى الحديث النبوى ، وبالترجمة للامام البخارى جامع هذا الصحيح المشهور ، فأتى له بكرسى الوعظ ، وهو بالطبع أعلى من كرسى التدريس ، فصعد عليه ، وتكلم بكلام فى العقائد والحديث لم يسمع نظيره أبدا كما يذكر صاحب خلاصة الأثر .

ولما فرغ من ذلك وأدهش السامعين بتدفق علمه ، وقوة حافظته ، وتمكنه من الموضوعات التى تناول الكلام فيها ، انتقل الى الكلام فى سيرة الامام البخارى وتقيته وتصونه وتحريزه فى جمع أحاديث الرسول . ثم تناول الكلام عن شعره ، فذكر انه ليس له غير بيتين من الشعر ، وأنشدهما فى المجلس . وهما :

اغتم فى الفراغ فضل ركوع فعسى أن يكون موتك بغتة
كم صحيح قد مات قبل سقيم ذهب نفسه النفيسة فلتة

وظلت هذه الجلسة انختمية من طلوع الشمس الى قرب الظهر . وقد غلبت على المقرئ طبيعته الأدبية وميله الى رواية الشعر والاستشهاد به فى كل موطن . فلم يفته أن يعرج على ما نظمه البخارى من شعر ، كما لم يفته فى ختام الدرس أن ينشد أبياتا

من شعره هو كان قد قالها وهو في طيبة مدينة الرسول يودع بها
النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي :

يا شفيع العصاة أنت رجائي
كيف يخشى الرجاء عندك خيه ؟

وإذا كنت حاضرا بفؤادي
غية الجسم عنك ليست بغية

ليس بالعيش في البلاد ارتفاع
أطيب العيش ما يكون « بطيه »

وهذه الأبيات الثلاثة التي رواها المحبى في الخلاصة ، قد
ذكرها المقرئ نفسه في مقدمة النفع وهو يتحدث عن زيارته لمدينة
الرسول وعن توديعه لها ، إلا أن البيت الأخير قد وقع فيه تحريف
في « خلاصة الأثر » حيث ذكر فيه هكذا :

ليس بالعيش في البلاد انقطاع أطيب العيش ما يكون بطيبة
ولا معنى لكلمة انقطاع هنا ، والصواب « ارتفاع » كما ورد
في نفع الطيب (٢) .

ولا تنتهى بهذه الأبيات الوداعية تلك الصورة الطريفة التي
صور بها المؤرخ المحبى مجلس المقرئ في الجامع الأموى بدمشق ،

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٣٠ - طبعة المطبعة الأزهرية ،
أما « خلاصة الأثر » فانظر صفحة ٣٠٥ من الجزء الأول .

فانه يمضى فى التصوير ذاكرنا لنا كيف نزل المقرى من كرسى
الوعظ الذى كان قائما عليه ، وكيف ازدحم الناس على تقبيل
يده ، وكان ذلك — كما يقول — نهار الأربعاء سابع عشرى
رمضان سنة سبع وثلاثين وألف .

ولقد شهدت قبة النسر بالمسجد الأموى بدمشق ، قبل جلوس
المقرى تحتها للتدريس والاملاء وبعد رحيله عن دمشق عائدا الى
مصر ، كثيرا من الدروس المشهورة لكثير من العلماء . فمنذ كانت
الدروس تلقى بالجامع الأموى وهذه القبة تموج بالطلاب الذين
يتلقون تحتها العلم على شيوخهم . وكثيرا ما شهدت املاء صحيح
البخارى من علماء حفاظ ثقات ، كما شهدت املاء صاحبنا المقرى
له كما سبق القول . فقد كان السيد محمد بن أحمد المنينى مفتى
الحنفية بدمشق فى القرن الثالث عشر الهجرى ^(٣) يقرىء تحتها
صحيح البخارى كل أسبوع بعد صلاة الجمعة . وكان جده السيد
الشهاب أحمد المنينى المتوفى سنة ١١٧٢ هـ هو أول من آل اليه
— من بيت المنينى — اقراء صحيح البخارى ودرس الحديث
النبرى تحت تلك القبة المشهورة .

وفى القرن الثالث عشر أيضا شهدت قبة النسر العالم الجليل
الشيخ محمد الكزبرى وهو يقرىء تحتها « جامع صحيح

(٣) أدرك السيد محمد المنينى ستة عشر عاما من القرن
الرابع عشر الهجرى حيث توفى سنة ١٣١٦ . انظر «حلية البشر»
ج ٣ ص ١١٨٨ .

البخارى « . ويصف العلامة الفقيه محمد بن عابدين درس
الكزبرى هذا بأنه (كان درسا عظيما جامعا لكل خاص وعام ،
مضمارا لفرسان أذهان الأعلام ، ويشير الى ذلك فى موشحة كان
قد نظمها فى مدح الشيخ محمد الكزبرى قائلا :

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| من به قبة ذاك الجامع | لم تزل فى كل عام تسعد |
| حين يروى فى الصحيح الجامع | لحديث المصطفى أو يسند |
| يا له من خير درس جامع | ولأهل العلم فيه مشهد |
| فكأن الوجه منه حينما | ينثر الدر على الملتبس |
| قمر عن جانبيه العلم | كنجوم أشرقت فى الغلس (٤) |

ولم يفت علماء الشام وشعراءه فى عصر المقرئ أن يشيروا الى
مجالس دروسه فى الجامع الأموى وتحت قبة النسر فيه ، فهذا
هو الأديب الصوفى محمد بن سعد الكلشنى أحد أفاضل الشعراء
النازلين بدمشق يمدح المقرئ بأبيات يقول فيها :

شهر شعبان جاءنا ليهنى
بقدوم الأستاذ كنز الفضائل
بهجة الكون روض علم وحلم
وهو مغنى اللبيب ان جاء سائل

(٤) حلية البشر للشيخ عبد الرزاق البيطار ج ٣ ص ١٢٢٩ ،
وقد نقلها عن كتاب « العقود اللآلى فى الأسانيد العوالى » للعلامة
محمد بن عابدين .

بمصابيح فضله قد أضاءت

ساحة « الجامع الكبير » لآمل

ومعلوم أن الجامع الكبير هو المسجد الأموي بدمشق . وهذا الأديب الدمشقي تاج الدين المحاسني يبعث اليه بعد عودته الى القاهرة رسالة من الشام يقول فيها عن الأفاضل الذين لقيهم المقرئ في دمشق وتعرف بهم : (ليس لهم شغل الا ذكر أوصافكم الحميدة ، وبث ما أبدىتموه بدروسكم المفيدة) . ومعلوم ان هذه الدروس كانت تحت قبة النسر بالجامع الكبير . أما المحاضرات والمسامرات والمطارحات فقد كان لها مجالس خاصة في كثير من دور دمشق العامرة ، وخاصة دار أحمد الشاهيني الذي أحاط «المقرئ» في أثناء زورته لدمشق بكل عناية ورعاية ما فتىء الرجل يذكرها ويشير اليها ويشيد بها (فلقد أوفى من الحقوق ما لا تؤدي بعضه فضلا عن كله) (٥) .

(٥) نفح الطيب . ج ١ ص ٥٥٧ .

أصحاب المشرق وأصدقاء المغرب

على الرغم من السنوات الطويلة الأربع عشرة التي قضاها أبو العباس أحمد المقرئ في مصر ، لم نعثر فيما لدينا من مصادر وكتب في السير وطبقات الرجال في القرن الحادي عشر على اسم عالم أو أديب مصري انعقدت بينه وبين المقرئ صلة ، أو دارت بينه وبينه مطارحة أو مفاكهة كتلك التي دارت بينه وبين حفنة من أدباء دمشق وشعرائها وعلمائها . ولا ندرى السر في هذا الوضع الغريب الذي لقيه الرجل في مصر .

وقد كان أحمد المقرئ رجلاً ألوفاً جميل العشرة سمح الخلق ، وكان في مصر في عصره جماعة من العلماء والأدباء الذين يرحبون بكل قادم ، ولا سيما إذا كان في مثل مكان المقرئ وفضله وسعة روايته وغرائب محفوظه عن الأندلس وأهلها وتاريخها . فما بال علاقات المقرئ مع أدباء مصر وعلمائها تسكت عنها المصادر ، بل يسكت عنها أبو العباس نفسه . وكثيراً ما حدثنا صاحبنا في « النفح » عن اخوانه وزملائه في المغرب من الوزراء والعلماء ، وعن أصحابه في دمشق الذين توطدت بينه وبينهم علاقات ود ، وصلات حب شديدة في مقامه هناك الذي لم يزد على بضعة أسابيع ؛ فهو يذكرهم في غير موضع من كتابه ، ويذكر بعض

مطارحاته معهم ، ويذكر بعض الرسائل التي تبودلت بينه وبينهم . ولكنه حين يذكر مصر والقاهرة مرارا كثيرة ، ويشير الى ملازمته خدمة العلم في الأزهر المعمور ، ويذكر خروجه منها للزيارة والحج ودخوله اليها ، ويذكر عودته من الشام اليها واستقراره فيها سنة ١٠٣٧ هـ لا يشير بكلمة صغيرة الى واحد من العلماء لقيه فيها ، أو واحد من الأدباء اجتمع به على أرضها ، مع أن كتابه الضخم قد وسع كل شيء ، واتسع لكثير من الأخبار والمناسبات والاستطرادات والتكرار الذي يتحير معه القارئ .

يخيل الى أن المقرئ كان في خلال مقامه بالقاهرة منطويا على نفسه ، منعزلا عن الالمام بالناس ومخالطتهم ، فلما ذهب الى دمشق وفتح له الأديب الكريم أحمد شاهين بيته وصدره ، تفتحت نفس المقرئ للمجالس والندوات والأسمار والمطارحات ، وسرعان ما تألف الود بينه وبين هؤلاء الأدباء ، وطرحوا الكلفة فيما بينهم مع الاجلال والتقدير له .

ويحدثنا المحبى ^(١) عن مجلس من تلك المجالس الدمشقية التي كان المقرئ واسطة عقدها ، ودرة جيدها . وقد دارت فيه مطارحة شعرية بين المقرئ وبين المفتى العمادى فقيه الأحناف في وقته . وكان الأديب السرى أحمد شاهين حاضرا ذلك المجلس في دعوة بعض الأعيان . وكان في المجلس قطع من الثلج ثرت في

(١) خلاصة الاثر ج ١ ص ٣٠٧ .

صحاف ، فمس المقرئ الثلج وقال : ألماس هذا ؟ فهزت المناسبة
أحمد شاهين — وهو شاعر ظريف — فأنشد مرتجلا :

شيخنا المقرئ ، وهو الناس والذى بالأنام ليس يقاس
مس ثلجا وقال : الماس هذا قلت الماس عندنا الماس !
ثم ارتجل على أثرهما بيتين آخرين فى الثلج ، من غير البحر
والقافية :

غنيت بالثلج عن سوداء حالكة
من قهوة لم تكن فى الأعصر الأول
وقلت لما غدا خلى يغننى
فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل !

فقال المفتى العمادى :
يا بردها ثلجة جاءت على كبد
حرء من فرقة الأحباب ، فى وجل

فقال المقرئ :
تحلو اذا كررت ذوقا وعادة ما
أعيد أن يلتقى بالكره والمسل

فقال العمادى :
لعل أعلاله بالثلج ثانية
يدب منها نسيم البرد فى عسلى !

فقال المقرئ :

إذا دعاني بمصر ذكر معيها
أجاب دمعى وما الداعى سوى طلل !

فقال العمادى :

لو كان فى مصر مباء بارد لكفى
عن الثلوج ، ومن للور بالحول ؟ !

ولقد صاحب المقرئ فى المغرب كثيرا من الرجال ، بل صادقهم مصادقة أكيدة ، وكان دائم الاتصال بهم من الشرق عن طريق الرسائل التى كان يحملها الحجاج المغاربة العائدين الى وطنهم بعد أداء الفريضة . فمن أصحابه الأدنين فى المغرب الشيخ محمد ابن يوسف المراكشى التاملى معلم الملوك كما نعته صاحبنا (٢) وكانت المراسلات بينهما دائمة على بعد الشقة بين المشرق والمغرب ، ففى احدى رسائل التاملى اليه يقول له : (وقد كنت كتبت — أعزكم الله تعالى — اليكم قبل هذا بكتب أربعة أو خمسة ..) . وقد حمل رسالة المقرئ اليه من الحجاز رجل من صعاليك الحجاج — كما يصفه التاملى — لقيه بمراكش ، فأوصل اليه كتاب المقرئ اليه ، وأبلغه سلامه . وكثيرا ما كان حجاج المغرب يقومون بدور الرسل بين المقرئ وأصدقائه فى الوطن المغربى . كالحاج الصالح السيد أبى بكر الذى يشير اليه التاملى فى رسالته .

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٥٥٨ .

ولقد كان للمقرى في المغرب صديق من أهل الجاه والسلطان والعلم والأدب ، هو الوزير عبد العزيز الفشتالى ، المكنى بأبى فارس ، وزير المنصور سلطان المغرب الذى أدرك المقرى عهده كما أدرك عهد ولده من بعده . ويثنى المقرى فى النفع على الوزير الفشتالى فى غير موضع ، ويذكره دائما بألقاب التجارة والتقدير ، فيقول عنه (صاحبنا وزير العلم بالمغرب ، العلم الشهير المنفرد فى عصره بحيازة قصب السبق فى البلاغة) (٣) . وكان الوزير الأديب عبد العزيز الفشتالى يرأس المقرى وهو بالمغرب لما يرحله الى المشرق ، وقد روى لنا بعض رسائله فى النفع ، ودون كثيرا من أخباره وسيرته فى كتابه المسمى « روضة الآس ، العاطر الأتقاس ، فى ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس » . وهو كتاب مفقود ، وان كان الأديب المغربى عبد الحى الكتانى يقول انه وجد اسمه فى فهرس المكتبة السلطانية بفاس ، ولكنه لم يقف عليه (٤) .

وقد بلغت أنباء وفاة الفشتالى صاحبنا المقرى وهو بالمشرق سنة ١٠٣١ ، أو بعد عام سنة ١٠٣٠ كما يقول هو . ولا شك انه حزن كثيرا على موته .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٢٦ .

(٤) المقرى : للحبيب الجنحاني . وانظر فى أخبار الوزير الفشتالى : سلافة انصر لابن معصوم ، وخلاصة الأثر للمحبى ، واليواقيت الثمينية لمحمد البشير الأزهرى ، والاستقصا للسلاوى .

ومن أصدقاء المقرئ في المغرب الكاتب الأديب أبو الحسن
على بن أحمد الشامي المغربي . ولقب بالشامي لأن جده قدم من
الشام أي من الشرق الى المغرب ، فنزل فاس واستوطن بها ،
فاشتهر أولاده بالنسبة الى وطنهم الأصلي . وان كان مؤرخو السير
يجمعون لهم بين لقب الشامي والمغربي (٥) .

هؤلاء بعض أصحاب المقرئ في المغرب ، اخترناهم ليمثلوا
ثلاثة أصناف من الناس اختارهم المقرئ لصحبته . فأولهم عالم
فقيه ، وثانيهم وزير كاتب شاعر ، وثالثهم أديب .

أما أصحاب المقرئ في دمشق فهم حفنة من أعيان العاصمة
وأدبائها وعلمائها . ويأتى على رأس قائمتهم الولي الأديب الشاعر
أحمد شاهين ، وأصل والده من الفراء الذي غنمه المسلمون في
فتح قبرس . وقد ولد له أحمد بدمشق فنشأ في الجندية العثمانية ،
وأسر في الفتنة بين على بن جانبولاد والعسكر الشامي ، ولما أطلق
سراحه ترك السيف والجندية ومال الى العلم والأدب فتعلمهما على
يد الحسن البوريني وعمر القاري والفقيه المفتي عبد الرحمن
العمادي وأبي الطيب الغزي . وقد جمع المولى الشاهيني هذا
الى الأدب والشعر والعلم الجاه والمنصب ، فتاب في القضاء
بدمشق ، وتولى قضاء الركب الشامي ، ولقى ادريس بن الحسن
شريف مكة ، وتولى التدريس بالمدرسة الجقمقية ، وهي المدرسة
التي أنزل فيها المقرئ ضيفا على الركب والسعة . وتجد في باب

(٥) سلافة العصر ص ٥٩٩ .

« دمشق والقاهرة » من كتابنا هذا نص البيتين اللذين بعث بهما أحمد شاهين الى المقرئ مع هدية وعطية . ونذكر هنا نص الأبيات التي رد بها المقرئ على صاحبه :

يا واحد العصر الذي بمديحه سارت ركاب المجد في البلدان
أوليتني ما لا أقوم بشكره مالى بشكر المنعمين يدان
ونظمت أشتات الكمال جواهرها أضحت تفوق قلائد العقيان
فالله يُبقى من جنابك سيدي عين الزمان ، ومفخر الأعيان
ولأحمد شاهين هذا أشعار رقيقة ، حتى لقد جمع بعض
الفضلاء — كما يقول المحبى ^(٦) — شعره في كتاب ضخمة أسماء
(الرياض الأنيقة ، فى الأشعار الرقيقة) . وقد كنت أتوقع أن
يوجد هذا الديوان بين مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق ،
ولكن فهرسها المطبوع سنة ١٩٦٤ برعاية المجمع العلمى العربى
لم يهدينى اليه ^(٧) . وقد روى صاحب الخلاصة طرفا من شعر
المولى الشاهينى — أو أحمد شاهين — وذكر من قوله المستجاد
أبياته الرقيقة التالية :

نصل الشباب ، وما نصلت من الهوى
وبدا المشيب وفى فضل تصابى
وغدوت أعترض الديار مسلما
يوما ، فلم تسمح برد جـوابى

(٦) خلاصة الأثر ج ١ ص ٢١١ .

(٧) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ، الشعر . وضع
د . عزة حسن — دمشق .

فكأنها ، وكأنتى فى رسسما

أعشى يحدق فى سطور كتاب ..

ومن أصحاب المقرئ فى الشام عبد الرحمن العمادى مفتى
الحنفية بدمشق وابن مفتيها ، وقد ترجم له المحبى فى الخلاصة
ترجمة طويلة ، وذكر انه كان تلميذا لجده القاضى محب الدين .
ولما زار المقرئ الشام سنة ١٠٣٧ كان العمادى مفتيا لدمشق منذ
سنة ١٠٣١ هـ ، وكثر لقاءهما هناك فى مجالس مختلفة ، وقامت
المراسلات بينهما بعد عود المقرئ الى القاهرة ، وكان للشعر
— أو النظم — دور كبير فى هذه المراسلات ، فقد كتب المقرئ
اليه مرة مستهلا بالبيتين الآتين :

يا حادى الأظعان نحو الشام بلغ تحياتى لتلك الفئام
وابداً بمفتيها العمادى الرضا دام به شمل الهنا فى التمام
فأجابه عبد الرحمن العمادى بكتاب افتتحه بهذين البيتين :

الى أهالى مصر أهدى السلام مبتدئاً بالمقرئ الهمام
من ضاع نشر العلم من عرفه ولم يضع منه الوفا للذمام
وتجد فى فصل آخر من كتابنا مطارحة الثلج التى دارت بين
العمادى والمقرئ على طريقة الارتجال فى احدى ندوات دمشق .
ومن أصدقاء المقرئ فى دمشق الشيخ العالم عمر القارى ، ويصفه
أحمد شاهين فى احدى رسائله الى المقرئ بأنه (الشيخ البركة
شيخ الاسلام) ويصفه المحبى فى الخلاصة بأنه (كان إماما محدثا

بارعا وحيدا محدثا فقيها أصوليا حسن الرواء متواضعا خلوقا
جم الفائدة والأدب طويل الباع حسن الخط والتقرير) ومن
الطرائف عن عمر القارى أن أباه لم يكن من أهل العلم ، وخرج
ابنه المسمى « عليا » من غير أهل العلم كذلك ، فانه كان من
المشتغلين بالجندية ، ولهذا كان الامام الشيخ حسن البورينى
يقول عن عمر القارى (انه وجود بين عديمين ..) (٨) .

واذا كان عبد الرحمن العمادى وعمر القارى من صنف العلماء
الفقهاء الذين اتصن بهم المقرئ اتصال صداقة وود وتعارف فى
دمشق ، فان هناك من الأدباء — غير المولى أحمد شاهين — الأديب
الشاعر « ابراهيم الأكرمى » الذى دارت بينه وبين صاحبنا
مخاطبات شعرية . وقد كان الأكرمى هذا كآبائه من خدام باب
الشيخ الصوفى الأكبر محبى الدين بن عربى . ومع هذا فقد كان
الرجل مشهورا بخمرياتة وغزلياته .. ! ويصف المحبى خمريات
الأكرمى بأنها « تجعل الزاهد عاصيا » ، كما يصف غزلياته بأنها
« تصير العاقل من الوجد حاليا » (٩) والحق ان خمريات الأكرمى
رقية عذبة المعانى جيدة الصوغ ، ولعل هذا النموذج التالى منها
يكشف عن سائرها :

ويوم فاختى الجسو رطب يكاد من الغضارة أن يسىلا
نعمت به ، وندممانى أديب وقور فى تعاطيه الشسمولا

(٨) خلاصة الأثر — ج ٣ ص ٢٢٤ .

(٩) الخلاصة ج ١ ص ٣٩ و ٤٠ .

قطعنا صبحه والظهر شربا وجاوزنا العشية والأصيلا
لدى روض عميم النبات يزهى بأزهار زهت عرضا وطولا
يدور به سوار الروض طورا كما يتعانق النخل الخليلا !

وحسبنا هذا النص للدلالة على خمريات ابراهيم !!

وقد يقال ان هذا الشاعر « المنحرف » كان على سبيل
المحاكاة « ورياضة القول » كما كانوا يعبرون . ولكن الذى
لا شك فيه أن عصر المقرئ كان منحرفا سواء فى المغرب أم فى
المشرق ، وان هذه الألوان العابثة من الشعر كانت تدور حتى فى
مجالس العلماء والمتصوفين ، بل كان يشارك بعض العلماء فى
نظمها ، وللمقرئ نفسه قصيدة مزدوجة لا ندرى كيف أباح فيها
الشيخ لنفسه أن يسلك فى غزله هذا المسلك النواصى المعروف ؟

ومن أصدقاء المقرئ الأدباء بدمشق محمد بن سعد الكلشنى ،
الذى دارت بينه وبين صاحبنا مراسلات شعرية بعد عودة المقرئ
الى القاهرة . ولم يمتد به الأجل منذ عاد صاحبنا الى مصر ، فقد
توفى فى أخريات العام الذى زار فيه المقرئ دمشق ، أعنى
سنة ١٠٣٧ هـ . ويصفه المحبى « بأنه كان من أدباء الصوفية
كما يقول عنه : (وكان فضلاء دمشق يميلون اليه ، ويعاشرون
منه رجلا سهلا خلوقا ، متوددا ، طارحا للتكلف ، صاحب نوادر
وآداب . وكان ينظم الشعر ، وله شعر مطبوع) (١٠) .

(١٠) المصدر السابق - ج ٣ ص ٤٦٨ .

وكان في حلقة المقرئ الأدبية في دمشق شاعر أديب آخر
اشتهر بوصفه شيخ الأدب في الشام ، وهو أبو بكر بن منصور
العمري الذي شارك في نظم الموشحات والزجل والدوييت
والموالي والقوما والكان وكان ، فكان في كل منها — كما يقول
صاحب خلاصة الأثر — سابقا لا يلحق ، ومتقدما لا يدرك . ومن
هنا كانت له شعبية رائجة ، وصار شعره — وخاصة العامي
منه — دائرا في أيدي الناس ، سائرا على ألسنتهم . وقد نحا نحو
زميله « الأكرمي » في غزلياته حتى اتهمه البديعي في كتابه « ذكرى
حبيب » بالانحراف (١١) . وهو ممن خاطبوا المقرئ شعرا بعد
عودته الى القاهرة ، وقد أورد له في الجزء الأول من النفح قطعة
من هذه المخاطبات .

وما حمل المقرئ لواحد من هؤلاء الأصدقاء الدمشقيين من
طيب الذكرى مثل الذي حمله للمولى أحمد شاهين ، (فلقد أوفى
من الحقوق ما لا تؤدي بعضه فضلا عن كله) كما يقول عنه .
والحق ان هذا الأديب الوجيه الدمشقي كان رجلا عالي الهمة ،
والمروءة . وكان ينزل العلماء الوافدين على دمشق في منزله ، فقد
أنزل عنده أيضا ممن نعرفهم الشيخ غرس الدين الخليلي المحدث
الفقيه الشافعي ، الذي جمع الى الفقه الأدب والشعر .

وقد جمع أحمد شاهين — صاحب الفضل في تأليف كتاب
نفح الطيب الذي يعد أكبر موسوعة أندلسية — الى الأدب

(١١) المصدر السابق ج ١ ص ٩٩ — ١٠٠ .

والشعر والجود بما فى اليد والمروءة النادرة ، خفة الروح ، ولطافة
النكتة . وكان فى عينيه حول .

وكانت تدار فى تلك المجالس والندوات الدمشقية أطيب
الأحاديث ، وتدور أطرف النكات . فمن ذلك أن « المحبى »
الكبير جد المحبى صاحب « خلاصة الأثر » كان قد دعى الى وليمة
وكان الفصل قائظا ، والحر شديدا ، فحضر وفى يده مروحة ،
وكان كبير اللحية . وصادف أن الأديب أحمد شاهين كان حاضرا
فى هذا المجلس ، ولم تفته النكتة العابثة فقال : جاءنا المحبى
بمروحتين ! يعنى المروحة الحقيقية التى فى يده ، ولحيته الكبيرة ..
ولكن المحبى الكبير كان أسرع خاطرا ، وألذع نكتة ودعابة من
ابن شاهين ، فقال معرضا بحول عينيه : هو رآها تتين ، وهما فى
نفس الأمر واحدة !!

رحم الله المقرئ وأيامه ولياليه السامرة الساهرة فى دمشق ،
كما رحم أعوامه الرتيبة المنطوية فى القاهرة !

طريقته في التأليف

لكل مؤلف طريقته في التأليف ، ومذهبه في التصنيف ، ويكاد يلزمه ذلك في أكثر ما يؤلفه . لأن طريقة التأليف هي جزء من شخصية المؤلف التي لا يستطيع الانسلاخ منها ، أو الانفصال عنها .

وإذا كان المقرئ في كل كتبه التي اطلعنا عليها يميل الى التدوين والنقل أكثر مما يميل الى التحقيق والبحث ، فاتنا سنقف في هذا الفصل لحظات قصارا أمام الخصائص التي تميز طريقة المقرئ في تأليف كتبه ، مستعينين في ذلك بكتابه الضخم « تفح الطيب » الذي يمثل لنا قيمة مؤلفاته ، والذي يجمع لنا كل الطرائق التي سلكها الرجل في تصنيف الكتب . فهو يعد بحق النموذج الواسع المتعدد الأطراف ، الشامل لما اتبعه المقرئ من طرق في كتابة الكتب ، بل هو المرآة التي يتجلى فيها بصدق مذهبه في التأليف .

وأول ما يلفت النظر في طريقة أحمد المقرئ هو ذلك النقل الهائل عن الكتب القديمة والمعاصرة له والقريبة من عصره التي اطلع عليها وقرأها في بيته أو في مكتبة السلطان زيدان — سلطان المغرب — التي كانت مفتوحة الأبواب ، والتي عل منها ونهل

كثيرا ، حتى حفظ منها ومن نصوصها جملة كثيرة هائلة أعاته عليها حافظته القوية التي تناولناها في فصل خاص من هذا الكتاب . ولا يكتفى المقرئ ، في نقله ، بالنصوص الشعرية مهما طالت أو قصرت ، ولكنه ينقل الأخبار الطويلة التي تبلغ صفحات . ثم لا يكتفى بذلك بل ينقل كتباً كاملة بما يكاد يقرب من نصوصها الكاملة . فهو من هذه الناحية أراد أن يجعل من « نفح الطيب » مكتبة تحوى في داخلها وما بين دفتيها على عدة كتب من تأليف غيره .

ويظهر هذا النقل فيما نقله من كتاب لجده المسمى أبى عبد الله محمد الذى كان قاضى القضاة بفاس . واسم هذا الكتاب « المحاضرات » ، ويحتوى على كثير من الفوائد والحكايات والاشارات . وقد كان المقرئ يملك من كتاب جده هذا نسختين بالمغرب ، فلما بدأ بتصنيف « نفح الطيب » فى القاهرة أخذ ينقل من فوائده كثيرا حتى بلغ مجموع ما دونه منه فى النفح احدى عشرة صفحة ، ختمها بقوله : (انتهى ما تعلق به الغرض من بعض كلام مولاي الجد — رحمه الله تعالى — فى كتابه المحاضرات)^(١).

وليس كتاب المحاضرات لجده هو الذى نقل منه وحده ، فقد نقل شطرا كبيرا من كتاب له آخر فى التصوف يسمى (الحقائق والرقائق) وقد بلغ النقل هنا ثمانى صفحات كبيرة من النفح ،

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ١٤٨ — ١٥٩ .

فيذكر « الحقيقة » أولا ، ثم يتبعها « برقية » . وندع جد المقرئ نفسه يشرح لنا المراد من حقائقه ورقائقه قائلا في مقدمته : (هذا كتاب شفعت فيه الحقائق بالرقائق ، ومزجت المعنى الفائق باللفظ الرائق ، فهو زبدة التذكير ، وخلاصة المعرفة ، وصفوة العلم ، وتقواة العمل) ويختم نقله الطويل عن كتاب جده قائلا : (انتهى ما تعلق به الغرض من كتاب الحقائق والرقائق لمولاي الجسد الامام ..) .

ولما بدأ المقرئ ينقل من كتاب « الانشادات والافادات » الذي ألفه أبو اسحاق الشاطبي تلميذ جده أبي عبد الله محمد المقرئ أخذ ينقل من افادات جده وانشاداته ما بلغ بضع صفحات من النفع .

وحين ترجم المقرئ لأبي عثمان بن ليون التجيبي من شيوخ الوزير لسان الدين بن الخطيب ، ذكر طائفة من كتبه واختصاراته — فقد كان ابن ليون هذا مولعا باختصار الكتب حتى قال بعض ظرفاء المغرب فيه حين شاهد رجلا طوالا فارعا القامة : لو رآه ابن ليون لاختصره !! — ولما انتهى المقرئ الى ذكر كتاب « نصائح الأحياء وصحائح الآداب » لابن ليون نقل من نصوصه بضعا وثلاثين صفحة كاملة ، وهو قدر كبير من هذا الكتاب (٢) . وختم المقرئ ما نقله من كتاب النصائح قائلا : « انتهى ما لخصت واخترت من الكتاب المذكور » .

(٢) يبدأ النقل من ص ٣٠٢ الى صفحة ٣٣٦ من نفع الطيب

ولم يكتف صاحبنا بما نقله من كتاب النصائح لابن ليون التجيبي ، فوصل كلامه بالنقل عن كتاب آخر له عنوانه (الأبيات المهدبة في المعاني المقربة) . ويبلغ النقل من هذا الكتاب خمس عشرة صفحة كاملة ، انتقل في نهايتها الى كتاب آخر للتجيبي عنوانه (أنداء الديم ، في المواعظ والوصايا والحكم) .

ويلاحظ أن حكم ابن ليون التجيبي وأمثاله ووصاياه هي أبيات شعرية من نظمه هو لا من كلام غيره من الشعراء . والكتابان جليان ، وهما من الكتب المفقودة ، ولولا ما نقله المقرئ منهما لضاع كل أثر لهما على الإطلاق .

ولا بأس من الاستطراد هنا قليلا لتحدث عن كتابي ابن ليون التجيبي في منظوم الحكم والأمثال ، فالرجل فيهما انسان كثير التجارب ، متعدد الخبرات ، وهو شاعر جيد القول . ومن هنا جاءت حكمه ووصاياه صادقة سائغة . وما أصدقه وهو يقول :

كل ما قد فات لا رد له فلتكن عن ذاك مصروف الطمع
أيعود الحسن من بعد الصبا ؟ قلما أدبر شيء فرجـمـع
أو يقول :

لا تغرنك صولة الجاه يوما أو تظن انها تتمادى
صولة الجاه لفح نار ، ولكن كل نار لا بد تلقى رمادا !
أو يقول في التآني وأخذ الأمور بالرفق :

خذ الأمور برفق واتئد أبدا

إياك من عجل يدعـو الى وصب

الرفق أحسن ما تؤتى الأمسور به
يصيب ذو الرفق أو ينجو من العطب
من يصحب الرفق يستكمل مطالبه
كما يشاء بلا أين ولا تعسب
أو يقول في العرفان بالجميل وشكر صاحب المنة :

اشكر لمن والاك معسروفا تكن بفضل الناس معروفا
شكر أخى المنة عدل ، فكن بالعدل مهما اسطعت موصوفا
من يكفر الاحسان لا بد أن يلقى عن الاحسان مصروفا
ولقد نقل المقرئ من كتاب « أنداء الديم » لابن ليون التجيبى
قدرا يبلغ ثلاثا وعشرين صفحة من « النفح » . وكما كان المقرئ
ينقل عن غيره ، فانه كان ينقل عن نفسه من بعض كتبه ، أو يحيل
اليها بالاشارة حتى يعرف القارئ أنه نقل من هناك . فحين جاء
ذكر حازم القرطاجنى فى النفح قال عنه (وقد عرفت بحازم هذا
فى أزهار الرياض ، وذكرت جملة من نظمه) ثم أخذ يروى له
شعرا سبق أن أورده فى أزهار الرياض ، مثل قصيدته التى مطلعها :

أدر المدامة ، فالنسيم مؤرج والروض مرقوم البرود مدبج
فقد نقلها كاملة ، كما نقلها فى أزهار الرياض قبل ذلك كاملة .
وقد يكتفى المقرئ فى نقله بأن ينقل فصلا من كتاب لمناسبة
يقتضيها الموضوع الذى يتكلم فيه ، أو الاستطراد الذى انساق
اليه . فقد نقل فى النفح فصلا عن « الهجاء » من كتاب الذخيرة

لابن بسام . وهو كتاب لم يطبع منه في مصر الا ثلاثة أجزاء وقف
الطبع عندها ، وما أكثر ما ينقل المقرئ عن كتب مفقودة أو نادرة
أو لم يهتد البحث عنها الى شيء .

وتختلف عبارات المقرئ التي يقدمها بين يدي الكلام الذي
ينقله والنص الذي يرويهِ ، وعبارات الانتهاء من النقل . فيقول
في بدء النقل : قال فلان ، أو قال فلان ما صورته ، أو يقول :
ونص محل الحاجة من الشاهد ، أو يقول : ولنورد ما في كتاب كذا
ما نصه ، أو غيرها من أمثال هذه العبارات الدالة على النقل ، فإذا
فرغ من النقل قال : انتهى ، أو انتهى كلام فلان ، أو انتهى
ما اختصرته من كلام فلان ، أو انتهى ما تعلق به الغرض من كتاب
كذا ، وغيرها من أمثال هذه العبارات الدالة على انتهاء النقل .

ولو أن المقرئ استعمل العبارات الدالة على انتهاء المرويات
والمنقولات دائماً في كتبه لتبين لنا بما لا يقبل الشك حد كلامه
هو وحد كلام غيره . ولكنه في بعض الأحيان يدخل الرواية على
رواية أخرى بدون ذكر لفظة « انتهى » فيتداخل الكلام بهذا
بعضه في بعض ، فلا يدرى القارئ كلام من هو ؟

وللمقرئ خاصية جيدة حين ينقل عن كتاب ، فهو
لا يكتفى بمجرد النقل عنه والأخذ منه ، بل يتجاوز هذا الى ابداء
الرأى في الكتاب المنقول عنه ، والحكم عليه . كما نجده في
كلامه عن ابن الأبار وعن كتابه المسمى « درر السمط » في خبر

السبط » ، فبعد أن تقل طرفا لا بأس به من الكتاب ، وبعد أن أشار الى انه سبق له التعريف بابن الأبار في « أزهار الرياض » ختم النقل بقوله : (انتهى ما سنع لى ذكره من درر السمط ، وهو كتاب غاية في بابه) (٣) .

وحين تصدى المقرئ لعرض كتب لسان الدين بن الخطيب والنقل عنها ، وقف عند كتاب « رقم الحل ، في نظم الدول » ووصفه بقوله انه « في غاية الحلاوة والعذوبة والجزالة » (٤) . وذكر انه كان يحفظ وهو بالمغرب أكثر ما فيه ولكنه نسيه وهو بمصر ، ولكنه تقل بعضا مما علق بحفظه منه . وحين ذكر مؤلفات أبى العباس أحمد الشريشى أشار الى شرحه الكبير لمقامات الحريرى وقوّمه بقوله : (وفي الكبير من الآداب ما لا كفاء له) (٥) .

ومما يلاحظ على المقرئ فى طريقة تأليفه ذلك التكرار الذى يصادفه القارئ فى الكتاب الواحد فى غير موضع . والرجل معذور فى هذا ، فقد كان يدون كتابه « نفح الطيب » على غير منهج فى التأليف . وكانت الأفكار والحوادث والأخبار تنال عليه فيقيدها فى موضع ، ثم قد يطول به مدى الكلام فينسى انه قيدها ، فيعود الى ذكرها . أو قد يذكر شيئا فى موضع ، وبعد

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٠٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٤ ج ٤ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٧٧ .

صفحات قليلة أو كثيرة يروى نصا فيه ذكر لذلك الشيء ،
فيتكرر ورود ذلك على الرغم منه .

فقد أورد في النفح كلاما عن العالم ابن مرزوق الذى ألف
كتابا فى تاريخ جده أبى عبد الله محمد المقرئ . واسم هذا الكتاب
(النور البدرى ، فى التعريف بالفقيه المقرئ) وعقب المقرئ على
هذه النسبة التى جاء بها ابن مرزوق (بناء منه على مذهبه انه
يفتح الميم ، وسكون القاف ، كما صرح بذلك فى شرح الألفية
عند قوله : ووضعوا لبعض الأجناس علم . وضبطه غيره — وهم
الأكثر — بفتح الميم وتشديد القاف ، وعلى ذلك عول أكثر
المتأخرين ، وهما لغتان فى البلدة التى نسب اليها ، وهى مقرة ، من
قرى زاب أفريقية) (٦) .

وبعد بضع وثلاثين صفحة من النفح عاد المقرئ ، فنقل كلاما
عن كتاب « نيل الابتهاج » ترجم فيه مؤلفه لجده المقرئ ، وذكر
فى الترجمة مسألة ضبط بلدة مقرة بفتح الميم وسكون القاف .
وعاد المقرئ بعد صفحات أخرى من هذا (٧) فأعاد الكلام فى
مسألة اسم البلدة التى نسب اليها قائلا : (وقد تقدمت الإشارة
الى أن اسم هذا التأليف — يعنى كتاب النور البدرى — مبنى
على أن المقرئ بفتح الميم وسكون القاف) .

والتكرار الملحوظ فى كتاب نفح الطيب قد ألجأت اليه كثرة

(٦) نفح الطيب ج ٣ ص ١١٠ .

(٧) المصدر نفسه ج ١ ص ١٧٤ .

الروايات في الغرض الواحد ، فيقع التكرار على غير قصد من المؤلف . ولكن الرجل لا يفوته هذا ويدرك أن الذي يذكره هنا سيأتي بعد قليل لأنه منقول عن كتاب معين بلفظه . فينبه عليه . ففي خلال حديثه عن القاضي أبي الوليد الباجي ذكر أن الخطيب البغدادي روى عنه قوله :

إذا كنت أعلم علم اليقين بأن جميع حياتي كساعة فلم لا أكون ضنينا بها وأجعلها في صلاح وطاعة ؟

وعقب على ذكر البيتين بقوله : (وقد ذكرناهما فيما يأتي قريبا من كلام الفتح — يعنى الفتح بن خاقان — لكوننا نقلنا كلامه بلفظه) ثم بدأ ينقل كلام الفتح بن خاقان وفيه ذكر للبيتين مرة ثانية . وقد وقع هذا التكرار بعد بضعة سطور قليلة ، لا بعد صفحات طويلة (٨) .

ومن غرائب ما لا حظناه من التكرار عند المقرئ أنه قد يترجم لشخص في موضع من كتابه ، ترجمة منقولة عن كتاب أو كتب ، ثم يعود في موضع آخر بعيد عن الموضع الأول فيترجم لشخص يتفق اسمه مع اسم من ترجم له أولا . والترجمة الأولى عن كتاب أو مصدر معين ، والثانية عن مصدر آخر غيره ، ولا تتفق الترجمتان في التفاصيل . فيتنبه المقرئ لهذا ، ويستظهر — على سبيل الظن ، بل على سبيل الاعتقاد — أنهما لشخص واحد . ففي صفحة ٣٦٧

(٨) المصدر نفسه ص ٣٥٧ ج ١ .

من النفع ترجم للكاتب أبى عبد الله محمد بن عبد ربه الملقى —
على انه ممن رحلوا من المغرب الى المشرق . ثم جاء فى صفحة ٣٧٨
فذكر كاتبا آخر باسم (أبى عبد الله محمد بن الشيخ الأجل
أبى الحسن بن عبد ربه ، وهو من حفداء صاحب كتاب العقد
المشهور) . وبعد ما فرغ من ترجمته فى هذا الموضع الثانى عقب
قائلا : (وتقدمت ترجمة الكاتب أبى عبد الله بن عبد ربه ، وأظنه
هذا ، فليتنبه له ، بل أعتقد أنه هو لا غيره) واكتفى المقرئ بهذا
التعقيب ولم يحقق لنا عن طريق الشعر الذى رواه للثنين ،
أو عن طريق سفرهما الى الاسكندرية مثلا اذا كانا شخصا واحدا
أم شخصين مختلفين .

ومن لطائف المقرئ فى نقله ورواياته عن محفوظه من الكتب
أنه اذا وجد ما رواه ناقصا أو غير كاف بالغرض أشار الى ذلك ،
ثم زاد عليه ما يفى بالبحث . كما فعل فى ترجمته للقاضى
ابن العربى ، فقد وجد ما نقله عن ابن سعيد ناقصا ، فعقب عليه
قائلا : (وما وفى ابن سعيد حافظ الاسلام أبا بكر بن العربى
حقه ، فلنعززه بما حضرنا من التعريف به ..) (٩) . وكما فعل فى
ترجمته لأبى الوليد الباجى نقلا عن كتاب الفتح بن خاقان ، فقد
عقب عليها قائلا : (ولعمري انه لم يوف القاضى أبا الوليد
الباجى حقه الواجب المفترض ، ووددت انه مدد النفس فى
ترجمته .. الخ) (١٠) .

(٩) نفع الطيب ج ١ ص ٣٣٦ .

(١٠) المصدر نفسه ص ٣٥٨ .

ويلفت النظر في طريقة المقرئ في التأليف ذلك الاستطراد الكثير الذى يزدهم به كتاب تفح الطيب على الخصوص .
فبينما هو يتحدث فى موضوع أو غرض معين ، اذا به يتركه ويدخل فى غرض آخر ، ثم يعود الى الموضوع الأول عودا على بدء ، وقد لا يعود اليه ، بل يدخل فى موضوع جديد . ولهذا يشعر القارئ الذى يود بحث موضوع معين بتشتيت ذهنه بين هذه المسالك المتشعبة من الحديث . أما القارئ الذى يريد القراءة لا غير فقد يجد فى هذا التقل والتحول ، والبدء والعود رياضة ولذة خاصة ، هى لذة المناسبة الطارئة ، أو ذكر الشيء بالشيء .

وليس المقرئ غافلا عن استطراداته الكثيرة أو غير واع لها . بل هو على الضد من ذلك محس بها ، متنبه لها . وما أطفه بعد استطراد طويل حين يقول : (وقد خرجنا بالاستطراد الى الطول ، وذلك منا استرسال مع جاذب الأدب . فلنمسك العنان !) (١١) . ويعترف المقرئ فى هذا الاعتذار اللطيف من الاستطراد الطويل بأنه انجذب مع الأدب ، وانساق مع حديث الشعر والمدح لدمشق التى أحبها ، فأبعده ذلك الانجذاب عن ترجمته لابن جبير التى خرج بالاستطراد منها ، ثم عاد اليها بعد الاعتذار ، مستأنفا الكلام بقوله : « رجع الى ابن جبير » .

ومساق الحديث عند المقرئ يقوده الى الانتقال من شيء الى

(١١) المصدر نفسه ص ٥٦٥ .

شيء ، فلا يلبث أن يخرج بك من الموضوع الأول ممهدا للخروج منه بعبارة تدل على ذلك كقوله « قد تذكرت هنا ، والشيء بالشيء يذكر .. » أو ما إليها من العبارات الدالة على الاستطراد . فحين روى أبياتا نقشت على إحدى الدور في مدينة مكناسة الزيتون تذكر في اللحظة عينها أبياتا رآها هو بعينه مكتوبة على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين ابن تاشفين ، وكانت من بدائع الدنيا ، فمهد لرواية هذه الأبيات بقوله : (قد تذكرت هنا والشيء بالشيء يذكر .. الخ) (١٢) . وحين روى لابن جزى تصديرا لأعجاز قصيدة امرئ القيس التي مطلعها :

ألا عم صباحا أيها الطلل البسالى

وهل يعمن من كان في العصر الخالى

وفرغ من قصيدة التصدير هذه ، عقب عليها بقوله : (ولا خفاء ببراعة هذا النظم ، واحكام هذا النسج . وقد أذكرنى هذا التصدير قصيدة الأديب حازم — يقصد حازم القرطاجنى — صاحب المقصورة ، اذ صدر قصيدة امرئ القيس : قفانبك . ولنذكرها هنا) (١٣) ثم أخذ يروى هذه القصيدة التصديرية ، التي ذكرته بها قصيدة ابن جزى . ولم لا وهو متبع دائما ما جاء في المثل : الشيء بالشيء يذكر .

وأمام هذه الاستطرادات الكثيرة الواضحة وجد المقرئ

(١٢) نفح الطيب ج ٣ ص ٤٢٩ .

(١٣) المصدر نفسه ص ٢٧٦ .

نفسه مضطرا الى أن يصل جبل الكلام في الموضوع الأصلي ويرتد به عودا على بدء ، فلجأ الى استعمال هذه الكلمة « رجع » التي يزدحم بها كتاب تفح الطيب ازدحاما ما عهدناه في كتاب آخر . فحين يخرج عن غرض من القول أو الحديث ثم يروم العودة اليه يكتب هذه اللفظة : رجع ، أو هذه العبارة : رجع الى ما كنا فيه (١٤) . أو : رجع الى فلان — أى رجع الى الحديث عن فلان الذى كنا فيه ، أو : رجع الى ما كنا فيه من أحوال فلان ، أو : رجع الى ما كنا بصددده . أو رجع الى ما كنا بسبيله .

ويلاحظ على المقرئ فى تأليفه أنه ينبه القارئ ويحيله على الموضوع الذى يتناوله فى موضع آخر من كتابه . فحين روى فى الجزء الثانى من النفع الأبيات الخمسة التى نظمها أبو عبد الله الهراوى موريا بأسماء عشرين كتابا عقب عليها بقوله : (وقد أوردنا فى ترجمة أبى عبد الله بن جزى الكاتب الأندلسى جملة مستكثرة فى التورية بأسماء الكتب ، فلتراجع ثمة) . وبالفعل حين ترجم لابن جزى فى الجزء الثالث (١٥) أورد له كثيرا من التوريات النثرية والشعرية بأسماء الكتب . ثم غلب عليه الاستطراد بعد ذلك فذكر طائفة من التوريات بالكتب لغير ابن جزى ، من أمثال الأرجانى ، وابن خاتمة ، والحضرمى ، وابن الخطيب .

(١٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٨٣ .

(١٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٩٢ .

والمقرى كثير المراعاة للتناسب في ايراد الأخبار وروايتها في كتبه ووضعها في مواطنها اللائقة ، وانزالها منازلها المناسبة . ففى الجزء الأول من النفح ذكر انتفاض العدو على أطراف الأندلس ، واحساس المسلمين بنية الأسبان فيهم ، وتنبه الشعراء والكتاب الى بدء النكبة ، وروى الأبيات والرسالة التى بعث بها القاضى أبو المطرف بن عميرة الى الشيخ أبى جعفر بن أمية حين حل الرزء بمدينة بلنسية أول الأمر (١٦) . ثم عاد فى آخر الجزء الثانى من النفح وبعد بضع مئات من الصفحات يقول : (قد ذكرنا فى الباب الثانى رسالة أبى المطرف بن عميرة الى أبى جعفر بن أمية ، وهى مشتملة على التلهف على الجزيرة الأندلسية حين أخذ العدو بلنسية ، وظهرت له مخايل الاستيلاء على ما بقى من الأندلس ، فراجعها فيما سبق ، وان كان التناسب التام فى ذكرها هنا ، فالمناسبة هناك حاصلة أيضا) (١٧) وهنا كان المقرى أحصف من أن يعيد نشر رسالة أبى المطرف فاكتفى بالإشارة إليها ، والاحالة عليها ، وطلب مراجعتها فى الباب الذى تقدم ورودها فيه ..

ورعاه المقرى للمناسبة فى ايراد النشر لا يقل عنه رعاؤه للتناسب فى ايراد الشعر . فحين روى قصيدة الوزير عبد العزيز الفشتالى النونية التى مطلعها :

همو سلبونى الصبر والصبر من شأنى
وهم حرموا من لذة الغمض أجفسانى

(١٦) المصدر نفسه ج ١ ص ١٤٢ .

(١٧) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٠٤ .

رأى من تمام التناسب أن يروى قصيدة على وزنهما وقافيتها
لأبى الفتح محمد بن عبد السلام المغربى التونسى نزيل دمشق ،
كما روى قصيدة من البحر نفسه والقافية نفسها للوزير لسان الدين
ابن الخطيب . وهنا أدرك أن تمام المناسبة قد يكون ناقصا اذا
لم يضاف الى هذه النونيات نونية أخرى للأديب الأندلسى عمر
الزجال . ومهد لروايتها بقوله : (وحيث اقتضت المناسبة جلب
هذه النونيات ، فلنضف اليها قصيدة أديب الأندلس الفقيه عمر
صاحب الأزجال ، اذ هو من فرسان هذا المجال) . ولم يكتف
بهذه المناسبات المتتالية فى القصائد النونية ، بل رأى من كمال
الموضوع أن يروى قصيدة ابن زمرك وهى من البحر والقافية
نفسها ، ووطأ لذكرها بهذه الكلمات : (وحيث ذكرنا هذه
القصائد النونية التى اتفق فيها البحر والروى ، وجرت من البلاغة
على النهج السوى ، فلا بأس أن نعزها بقصيدة الرئيس الوزير
أبى عبد الله بن زمرك ..) .

وقد كان فى المقرئ صاحب تفح الطيب وأزهار الرياض
وغيرهما فضيلة الاطلاع بنفسه على الكتب التى ينقل عنها ،
ويروى منها . فلا محل لأن يقال عن الرجل انه (حاول فى أغلب
الأحوال أن يضلل القارئ ، فنقل عنه — يعنى عن « المغرب
لابن سعيد » — دون أن يسميه مرارا وتكرارا . وأحيانا كان ينقل
عنه ويزعم أنه ينقل عن الحجارى فى « المسهب ») (١٨) . فالمقرئ

(١٨) مقدمة الدكتور شوقى ضيف لكتاب : « المغرب فى حلى
المغرب » — طبع دار المعارف — ص ١٩ .

أبعد من أن يرمى بمثل هذا الاتهام الظالم ، فقد كان الرجل أميناً في قلبه ، أميناً في رجوعه الى الكتب . بدليل انه اذا سمع عن كتاب ولم يره يقول ذلك بصراحة وبدون رغبة في المبالاة بالتكثير في المصادر . وبدليل أنه قال في معرض الحديث عن كتاب « شنف السامع بوصف الجامع » — أي الجامع الأموي بدمشق — : ولم أقف على كل هذا الكتاب المذكور بل على بعضه (١٩) . وبدليل انه يذكر في ترجمته لابن حيان الغرناطي انه وقف على كتاب « أعيان العصر وأعوان النصر » لصلاح الدين الصفدي (فوجدت فيه ترجمة أبي حيان واسعة ، فرأيت أن أذكرها بطولها لما فيها من الفوائد) .

ومن كان هذا مذهبه في الاطلاع على الكتب ، والصدق في بيان ذلك ، فلا حاجة به الى الزعم وتضليل القراء ..

(١٩) نفح الطيب ج ١ ص ٥١٢ .

حافضة قوية

اشتهر شهاب الدين المقرئ بحافظة قوية نادرة . فهو من أولئك الرجال الذين يقرءون المواد العلمية والتاريخية والشعرية والأدبية ثم يعونها في صدورهم ، ويتدفقون بها في المناسبات المختلفة سواء أكان ذلك في دروسهم أم في الندوات التي تعقد فيها المسامرات والمحاضرات .

ولا تمتاز بالحافظة القوية أرض شرقية أو غربية ، ولكن الملاحظ أن كثيرا من أهل المغرب يمتازون بالحفظ ويعتمدون عليه في التدوين والتصنيف ، حتى لقد كان الامام الشنقيطي الكبير والصغير من أعاجيب الدنيا في ذلك .

ولقد استطاع شهاب الدين المقرئ منذ اللحظات الأولى من صباه أن يظهر تفوقا عجيبا في قوة الحفظ ، واشتهر بالزيادة على أقرانه الصغار في المراحل الأولى لطلب العلم . واستطاع أن ينمي هذه الموهبة فيه وأن يستعين عليها بدوام مذاكرة العلم ومدارسته حتى تكون مسأله دائما قريبة منه .

وأكب المقرئ منذ صباه الباكر على الكتب المخطوطة الكثيرة التي كانت تزدهم بها المكتبات الخاصة في تلمسان ومراكش وفاس . ولعله أفاد كثيرا من المكتبة الخاصة للسلطان المغربي

أبى المعالى زيدان بن السلطان أبى العباس المنصور بالله السعدى المعروف بالذهبي ، وهو أعظم سلاطين المغرب فى عهد الدولة السعدية . فقد كان السلطان زيدان هذا عالما فقيها مشاركا فى كثير من العلوم متضلعا فيها . وله تفسير على القرآن الكريم اعتمد فيه على ابن عطية والامام الزمخشري صاحب الكشاف ومن أجلاء العلماء والمفسرين فى المشرق .

ومن طرائف أخبار السلطان زيدان السعدى الذى اتصل به المقرئ فى فاس انه كان كثير الجدل فى المسائل ، فلا يقبل الأمور بسهولة تسليم ، ولكنه يناقش ويجادل . وقد حدث له مع الشيخ أبى العباس الصومعى حادثة تدل على حدة طبع هذا السلطان المغربى منذ أوائل شبابه وقبل توليه حكم المغرب . فقد ألف الصومعى كتابا موضوعه يدور حول مناقب الشيخ الولي « أبى يعزى » ، وسماه : المعزى — بضم الميم وفتح الزاى كأنه اسم مفعول من أعزى — فعارضه زيدان السعدى — وكان فى ذلك الحين واليا من قبل أبيه المنصور على مدينة تادلا — وبنى معارضته على انه لم يسمع عن العرب أنهم قالوا : أعزاه بالفعل الرباعى ، ولكنهم قالوا : عزاه بالثلاثى ، أى نسبه . فأصر الشيخ الصومعى على رأيه ولم يرد أن يتجاوزه أو ينزل عنه ، فغضب الأمير زيدان غضبة بلغ من حدتها انه لطم الشيخ على وجهه بالنعل .. فشكاه الشيخ الى والده السلطان المنصور ، فقال له : لو لطمك وهو المخطئ لعاقبته ، أما اذا كان الصواب معه فلا !

والحق ان هذه الفعلة التي فعلها زيدان مع شيخ جليل هي من دفعات الشباب وحماسه المفرطة الثائرة ، واذا كان الحق — لغويا — معه فما كان له أن يخرج عن طور الاحترام وآداب اللقاء مع شيخ عالم زاهد وقور ، فان مسائل العلم لا تقرر بالعدوان والقوة ، ولكنها تتضح بالمجادلة الحسنة .

ومن باب الاستطراد هنا نقول ان الشيخ السلاوي صاحب « الاستقصا » يعلق على هذه الفعلة بأن النكسة التي أصابت الأمير زيدان السعدي في أيام سلطنته بعد وفاة والده كانت من آثار تلك اللطمة .. فقد كان الشيخ الصومعي من رجال الله (والله تعالى غيرة على المنتسبين الى جنابه العظيم ..) (١) .

وقد كان للسلطان زيدان السعدي هذا مكتبة خاصة حافلة بنفائس الكتب ونوادرها ، وكان المقرئ وهو نزيل بفاس يتردد عليها ، ويطالع كتبها ، ويقيد نوادر مسائلها ، ويكاد يعيها في صدره . ولا شك انها كانت المصدر الذي كان يمدده دائما بالتأليف في الموضوعات النادرة كتواريخ الأندلس ، والمغرب ، وتراجم الرجال الذين لولا المقرئ لضاعت سيرهم ، وعميت علينا أخبارهم . ومن سوء الحظ ان تلك المكتبة العظيمة قد اغتصبها قراصنة الأسبان في عهد السلطان زيدان نفسه ، فقد غنموا في بعض الأيام وفي احدى مناوشاتهم مع بلاد المغرب مركبا للسلطان زيدان فيه

(١) الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى — ج ٦ ص ٧١ .

أشياء نفيسة نادرة ، من جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب في موضوعات الدين والأدب والفلسفة .

ولم تنفرد المصادر المغربية — وأهمها «الاستقصا» للسلاوى — بذكر هذه الحادثة ، ولكن المصادر الأجنبية تذكرها . ويعلق ولدا الشيخ السلاوى على هذه المسألة قائلين : (قضية أخذ الأصبان — يعنى الأسبان — لكتب زيدان شهيرة في كتب الأفرنج وتواريخهم ، فلتراجع فيها ولا بد . والكتب ما زالت محفوظة بخزانة الأسكريال قرب مادريد — أغنى مدريد — وقد دعت الحكومة الأصبانية في وقتنا هذا وهو ١٣٤٢ — أحد الفرنسيين لجعل برنامج لها ..) (٢) .

ويحدثنا المقرئ في بعض كتبه (٣) عن قوة حافظته قائلاً في فتح المتعال : (وكنت في حال الصغر أحفظ كثيراً بالنسبة الى أقرانى ، فحدثنى مولاي العم سعيد بن أحمد المقرئ أن بعض شيوخه من أهل تلمسان ، كان يطالع الكراس الكبير بسرعة ، فيحفظ ما فيه من وقته من غير تأمل ، ولا ببطء ألبتة ، فانكسرت نفسى) ويدلك انكسار نفسه على انه كان غير راض بهذا المبلغ الذى بلغه من الحفظ بالنسبة الى أقرانه ، وانه كان يطمح أن يكون مثل بعض

(٢) المصدر السابق ج ٦ ص ٧٠ .

(٣) فتح المتعال في مدح النعال . وهو مخطوط بالصادقية رقم ٩٧٥ كما يذكر الأستاذ الحبيب الجنحاني في كتابه ص ١٢٦ - ٦٠ .

شيوخ عمه من أهل تلمسان في سرعة الحفظ بأيسر نظر . ولعله بلغ هذا حين كبر ..

ومما يدل على قوة الحافظة عند الشهاب المقرئ انه كتب كتابه « تفح الطيب » وهو في القاهرة بعيد عن كتبه ومكتبته التي خلفها بالمغرب . وحين عرض عليه الأديب الدمشقي المولى أحمد شاهين أن يؤلف كتابا في التعريف بلسان الدين بن الخطيب اعتذر أولا من هذا الطلب بأن هذا الغرض غير سهل ، وكان من أسباب اعتذاره : (عدم تيسر الكتب المستعان بها على هذا المرام ، لأنني خلفتها بالمغرب ، وأكثرها في المشرق كعنقاء مغرب — أي مستحيل الوجود كاستحالة العنقاء) (٤) . ولكن الله أعانه بعد ذلك ويسره لتأليف الكتاب فكان « تفح الطيب » الذي نجد حديثا عنه في موضع آخر من كتابنا هذا .

ويؤكد المقرئ لنا في غير موضع من كتابه « تفح الطيب » حقيقة تركه لكتبه في المغرب ، كأنه يريد بذلك أن يمهد لنفسه أسباب العذر فيما قد يكون وقع في الكتاب من تقصير ! فنراه في صفحة ٥٧ من الجزء الأول يقول عن كتبه : (وتركت الجميع بالمغرب ، ولم استصحب معي منه ما يبين عن المقصود ويعرب ، إلا نذرا يسيرا علق بحفظي ، وحليت بجواهره جيد لفظي ، وبعض أوراق سعد في جواب السؤال بها حظي . ولو حضرني الآن

(٤) النفع ج ١ ص ٣٨ .

ما خلفته مما جمعت في ذلك الغرض وألفته ، لقرت به عيون ،
وسرت به ألباب ..) .

ويشير المقرئ الى واقعة ترك كتبه بالمغرب في غير موضع
من كتبه وخاصة « نفح الطيب » . ويظهر انه كان لا يضمن
بالحصول على أكثر من نسخة واحدة من الكتاب الواحد . ويحدثنا
عن كتاب « المحاضرات » الذي ألفه جده أبو عبد الله محمد
المقرئ ، فيصفه بأنه فيه من الفوائد والحكايات والاشارات
كثير ، ثم يعقب على هذا بقوله : (وقد ملكت منه بالمغرب
نسختين) (٥) .

ويحدثنا في موضع آخر من النفح عن تملكه بمدينة فاس لمجلد
ضخم مخطوط بخط مؤلفه ، وهو أحد علماء مدينة فاس ، ألفه
برسم جده ، وسماه بالزهر الباسم (وأطال فيه في مدح مولاي
الجد والثناء عليه ، والتتويه بقدره ، وذكر محاسنه . ولم يحضرني
الآن لكوني تركته مع جملة كتبى بالمغرب) (٦) .

ولا يكاد يخلو موضع في النفح من الاشارة الى ما تملكه
المقرئ من كتب في المغرب أو اطلع عليه منها . ففي خلال ترجمته
للوزير أبي عبد الله بن الحكيم الرندي يشير الى حسن خطه
وتملكه بعض كتبه قائلا : (وخط الوزير ابن الحكيم في غاية
الحسن . وقد رأيت مرارا ، وملك بعض كتبه) (٧) . وفي ترجمته

(٥) نفح الطيب ج ٣ ص ١٤٨ .

(٦) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٧٤ .

(٧) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٠ .

لابن الأزرق الغرناطى الأندلسى أخذ يعد تصانيفه الكثيرة ، حتى اذا بلغ كتاب « روضة الأعلام ، بمنزلة العربية من علوم الاسلام » وصفه بقوله انه (مجلد ضخيم فيه فوائد وحكايات ، لم يؤلف فى فنه مثله ، وقت عليه بتلمسان) (٨) .

ومن دلائل قوة الحفظ عند المقرئ وكثرة محفوظه ما يورده فى المعنى الواحد أو الغرض الواحد من أشعار يستشهد بها لشعراء كثيرين من أهل المشرق والمغرب . ففى معرض الحديث عن مواقف الوداع والتوديع للأهل أو الأوطان أو الأحباب نراه يورد شعرا كثيرا لكثير من الشعراء ، كأن هذه الأشعار كانت على أطراف أصابعه . فيستشهد بشعر للشريف الرضى ، والوزير ابن عمار ، والنزارى ، والصابى ، والمهذب ابن أسعد الموصلى ، والكمال التبوخى ، وابن الأثير ، والصفدى ، وابن نباتة السعدى ، وسميه ابن نباتة المصرى وغيرهم . وكل هذا الشعر « الوداعى » قد جاء به وهو يودع دمشق عائدا الى القاهرة .. !

وما أكثر المناسبات والموضوعات التى يروى فيها المقرئ سيلا من الشعر لغيره ، كمدح مصر ، ومدح الشام ، ومدح مكة والمدينة ، وشعر الغربة والحنين ، وشعر الزيارات للمزارات وغيرها ..

والمقرئ فى روايته للشعر يرويه باللفظ كما قاله الشاعر الأصيلى أو كأقرب ما يكون الى قوله ، فاذا خاتته الذاكرة — وهى

(٨) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٩ .

خوارة في بعض الأحيان — فانه يلجأ الى رواية الشعر بالمعنى ! ولعله أخذ ذلك من طريقة أهل الحديث النبوي في روايته بالمعنى .. ومن حسن الحظ ان المقرئ لم يلجأ الى هذه الطريقة الا في مرات قليلة معدودة ، كالأبيات الثلاثة التي رواها لعالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السلمي مخاطباً بها سلطان الأندلس . فقد عقب على الأبيات قائلاً : (وهذا البيت الثالث نسيت لفظه ، فكتبت بالمعنى والوزن ، اذ طال عهدي به . والله تعالى أعلم !) (٩) .

وحين يلجأ المقرئ الى رواية قصيدة لشاعر في غرض معين ثم لا تسعفه الذاكرة بأبيات القصيدة كلها ، فانه يكتفى بإيراد ما يحفظه مشيراً الى انه لم يحضره من هذه القصيدة الا القدر الذي استشهد به ، كما فعل في مرثية ابن حمدون الأندلسي المألقي للإمام العز بن عبد السلام ، فقد ذكر منها أبياتاً أربعة لا غير ، ثم عقب على ذلك قائلاً : (وهي طويلة ، ولم يحضرني سوى ما ذكرته) (١٠) .

ولقد انهالت على المقرئ فيوض من الأخبار والنوادر والأشعار في خلال مجالسه الأدبية بدمشق التي كان يتجاذب فيها أطراف الأحاديث مع أدباء الشام وشعرائه عن الأندلس وأعلامها وخاصة لسان الدين بن الخطيب . وكان الحديث ينجر بالسامرين والمنتدين الى فنون من القول وأعاريض من الكلام فيتصرف فيها المقرئ بما وعته حافظته ، وما يسعفه به محفوظه . وقد أدهش أدباء

(٩) نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٦ .

(١٠) نفح الطيب ج ٢ ص ٣ .

دمشق وعلماءها بهذا الفيض الذي يصفه هو بأنه فيض من الله حيث يقول : (فصرت أورد من بدائع بلغائها ما يجرى على لسانى من الفيض الرحمانى ، وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين ابن الخطيب السلمانى صب الله عليه شآبيب رحماه ، وبلغه من رضوان الأمانى ما تثيره المناسبة وتقتضيه ، وتميل اليه الطباع السليمة وترتضيه) .

ولا شك أن مرويّات المقرئ وحفظه العجيب وقوة ذاكرته على استحضار ما يريد من الأخبار والاستشهاد قد لفتت أنظار مستمعيه فى مجالسه ودروسه وأسمازه ، حتى لم يجد بعضهم بدا من الإشارة الى ذلك وإبرازه كظاهرة تستحق أن يشار إليها وينوه بها . ومن هؤلاء مفتى الشام الشيخ عبد الرحمن العمادى الذى نظم فى مدحه قصيدة يقول فيها :

شمس هدى أطلعها المغرب وطار عنقاء بها مغرب
فأشرقت فى الشام أنوارها وليتها فى الدهر لا تغرب !
أعنى الامام العالم المقرئ أحمد من يكتب أو يخطب

الى أن يقول وهو بيت القصيد ومحل استشهادنا :

درس غريب كل يوم لـه يملئ ، ولكن حفظه أغرب
فهنا خصيصة لم يجد العمادى من الانصاف أن يسكت عنها وهو فى معرض تعداد مزايا المدوح . ولم ينفرد مفتى الحنفية بدمشق بالإشارة شعرا الى شدة الحفظ عند المقرئ ، فهناك

الأديب الشاعر المولى أحمد شاهين الذى أخذ يودع المقرئ يوم
ازماع رحيله عن دمشق بقصيدة يقول فيها :

أغنى وجودك وهو عين الدين عن
علامة الدنيا « لسان الدين »

انظره تستغنى به عن غـسـيره
والى العيان ارغب عن المظنون
تلقى علوم الناس فى أوراقهم

وعلموه فى صدره المشحون

وهناك الأديب الدمشقى ابراهيم العمادى يستدعى المقرئ
لأجازته شعرا فيقول :

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| فازت دمشق الشام بالمقرئ | الألمعى اللوذعى العبقري |
| علامة العصر بلا مفتـسـري | وواحد الدهر بلا ممتري |
| جامع علم بث املاءه | بالشام ملء الجامع الأكبر |

وقد جعلت كثرة المحفوظ من شهاب الدين المقرئ حافظا راويا
جامعا أكثر منه باحثا محققا . واذا كانت هذه مما لا ترجح كفة
الميزان عند المقرئ المحقق ، فانها بلا شك تعد فى جانب حسناته
من حيث انه أمدنا بحصيلة هائلة من المعارف والأخبار الأندلسية
والمغربية لولا روايته وحفظه لضاعت من أيدينا . ومن هنا كانت
قيمة كتب المقرئ كلها . فهي ليست كتباً للرأى والدرس والتحليل،

ولكنها ذخيرة حافلة ومنبع خصيب لكثير من الأخبار والأشعار .
وتلك قيمة يهون بجانبها ما ضاع من التمحيص والتحقيق عنده .
فالمهمة الأولى عند المقرئ ، كما كان يتصورها بحسه وذوقه
الخاص ، هي أن يروى الأخبار بصرف النظر عن تحقيقها ومقابلة
النصوص بعضها ببعض . ولا بأس أن يتكرر الخبر أو تتكرر
النقول أكثر من مرة ، لأن الرجل معنى بالنقل والرواية لا غير . ومن
هنا كانت قراءة كتب المقرئ وخاصة النفع والأزهار تحتاج الى
ذاكرة قوية قريبة من ذاكرة الرجل نفسه ، لأن الأخبار تتزاحم
على القارئ بصورة قد يفقد معها التركيز على الموضوع الواحد .
وهذه الطريقة : طريقة الاتساع — أو النجعة — في رواية
الأخبار (وهي غير طريقة التركيز) قد لا تلائم كثيرا من الناس ،
وقد أحس المقرئ نفسه بما قد تعاب به هذه الطريقة وما يوجه
اليها من سهام النقد . فأشار اليها في مقدمة كتابه « أزهار
الرياض » قائلا (١١) : (وكثيرا ما خرجت من الشيء الى ما يناسبه
ويدانيه ، وربما أبعدت النجعة ، ثم وقعت الأوبة والرجعة ، على
رغم أنف قالى ذلك وشانيه ، وقربت بذلك كله شاسعا ، كي تسهل
مئوته على معانيه ..) .

ومما يوضح لنا قضية ابتعاد المقرئ عن التحقيق والتمحيص
لمجافاة ذلك لطبعه في الرواية وذوقه في الحفظ والنقل — ما رواه
من أسباب انتشار مذهب الامام مالك في الأندلس . فلم يكن له

(١١) أزهار الرياض — ج ١ ص ١٥ .

فيه رأى خاص ، ولا اتجاه معين ، ولكنه اكتفى بنقل كلام قاله الحافظ ابن حزم الأندلسي من (أن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاة ، وكان لا يلي قاض في أقطار الأندلس الا بمشورته واختياره ، ولا يشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع الى الدنيا ، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به) . ويعلق المقرئ على هذا الخبر الذي رواه قائلنا : (وذكرنا في غير هذا الموضوع قولاً آخر في سبب انتشار مذهب الامام مالك بالأندلس ، والله سبحانه أعلم بحقيقة الأمر) (١٢) .

فاذا عدت الى الموضوع الآخر من « نفح الطيب » الذي يشير اليه رأيته ينقل في الجزء الثاني منه كلاماً في هذا الموضوع يقول فيه : (واعلم ان أهل الأندلس كانوا في القديم على مذهب الأوزاعي وأهل الشام منذ أول الفتح . ففي دولة الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن الداخل — وهو ثالث الولاة بالأندلس من الأمويين — انتقلت الفتوى الى رأى مالك بن أنس وأهل المدينة ، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعاً بل والمغرب ، وذلك برأى الحكم واختياره . واختلفوا في السبب المقتضى لذلك . فذهب الجمهور الى أن سببه رحلة علماء الأندلس الى المدينة ، فلما رجعوا الى الأندلس وصفوا فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره فأعظموه كما قدمنا ذلك . وقيل ان الامام مالكا سأل بعض

(١٢) نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٨ .

الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس فوصف له سيرته ، فأعجبت مالكا ، لكون سيرة بنى العباس في ذلك الوقت لم تكن بمرضية ، وكان لما صنع أبو جعفر المنصور بالعلوية بالمدينة من الحبس والاهانة وغيرهما ما هو مشهور في كتب التاريخ ، فقال الامام مالك رضى الله تعالى عنه لذلك المخبر : نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم ، أو كلاما هذا معناه . فتميت المسألة الى ملك الأندلس مع ما علم من جلالة مالك ودينه ، فحمل الناس على مذهبه وترك مذهب الأوزاعي . والله تعالى أعلم) .

وأنت ترى من هذين الخبرين في موضعين بعيدين ، وفي جزءين مختلفين من « تفح الطيب » ان قضية انتشار المذهب المالكي في الأندلس والمغرب لم تكن الموضوع الرئيسى ، ولا المقصود بالمعالجة والدراسة والبحث ، ولكنها جاءت عرضا في مناسبتين مختلفتين ، فجاءت في الجزء الأول ، في موضع التعريف بالفقيه يحيى بن يحيى ، في الباب الخاص بالتعريف ببعض من رحل من الأندلسيين الى بلاد المشرق . وجاءت في الجزء الثانى في الباب الخاص بنبذة مما من الله به على أهل الأندلس من توقد الأذهان .. وهكذا ترى أن الكلام عن انتشار المالكية في الأندلس متقطع ، وانه ذكر مرة ومع سبب ، وذكر أخرى ومع سببان ، فهناك ثلاثة أسباب لم يحققها المقرئ ولم يزنها بميزان الفقيه المؤرخ ، وخرج من ذلك كله بقوله : والله أعلم .

على اننا لا نظلم الرجل فنجرده من التحقيق في مؤلفاته جملة ،

فهو أحيانا يميل الى التحقيق في بعض المسائل ، كما فعل في تحقيقه للمكان الذى دفن فيه القاضى ابن العربى حيث يقول : (ووقع في عبارة ابن الزبير تبعا لجماعة ، انه — يعنى ابن العربى — دفن خارج باب الجيسة بفاس ، والصواب خارج باب المحروق ، كما أشبعت الكلام على ذلك في أزهار الرياض) (١٣) . وكما فعل في تحقيقه للشعر الذى رواه منسوباً الى الشيخ محبى الدين بن عربى الصوفى فى ضابط ليلة القدر ، فقد روى الأبيات ثم علق عليها قائلاً : (قلت : لست على يقين من نسبة هذا النظم الى الشيخ رحمه الله تعالى ، فان نفسه أعلى من هذا النظم ، ولكنى ذكرته لما فيه من الفائدة ، ولأن بعض الناس نسبته اليه) .

وإذا كان التحقيق هنا لم يبلغ مداه حتى يرد الشعر الى قائله الحقيقى ، فانه على كل حال قد أثبت فى هذا الكلام ملكته الناقدة ، وذوقه الأدبى ، وتذوقه الجمالى حين قرر أن نفس ابن عربى أعلى من ذلك النظم الذى رواه (١٤) .

ومن تحقیقات المقرئ فى الشعر ما علق به على قصيدة أبى البقاء صالح بن شريف الرندى النونية التى قالها فى رثاء الأندلس ، والتى مطلعها :

لكل شيء اذا ما تم نقصان
فلا يغربطيب العيش انسان

(١٣) نفح الطيب ج ١ ص ٣٣٧ .

(١٤) المصدر نفسه ص ٤٠١ .

فبعد أن فرغ من تدوين القصيدة كاملة على وفق روايته علق عليها قائلاً : (انتهت القصيدة الفريدة ، ويوجد بأيدي بعض الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرها مما أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف . وما اعتمدته منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبه . ومن له أدنى ذوق علم ان ما يزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها في البلاغة . وغالب ظني ان تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس ، اذ كان أهلها يستهضون هم الملوك بالشرق والمغرب ، فكأن بعضهم لما أعجبه قصيدة صالح بن شريف ، زاد فيها تلك الزيادات . وقد بينت ذلك في أزهار الرياض ..) (١٥) .

فأنت لا ترى هنا رواية قصيدة فحسب ، ولا ترى نقداً للشعر المدسوس على القصيدة مرده الى الذوق الأدبي والحس بالجمال الفني وحسب ، بل ترى — فوق ذلك — سلوكاً في مسالك التحقيق التاريخي ، فان غرناطة أخذت بعد موت الرندي ، وكذلك بقية المواقع المزيدة ، مما يدل على ان الأبيان الزائدة مضافة الى القصيدة بعد وفاة قائلها..

ونلاحظ على المقرئ في روايته للأخبار وتراجم الرجال انه قد يجد الرواية عن كتاب معين ناقصة ، أو ان الموضوع بها لم يستوف حقه ، ولم يشرف على تمامه ، فليجأ الى (تعزيز) الرواية بما يحضره

(١٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٩٥ .

من أخبار أخرى حول هذا الموضوع . كما فعل — مثلا — في ترجمته للقاضي أبي بكر بن العربي الفقيه ، فانه لما وجد ما نقله ورواه عن ابن سعيد غير واف ولا موف بحق الرجل عاد فعززه بما حضره من التعريف به (١٦) .

وهكذا لم يكن المقرئ راويا وجامعا على اطلاق القول ، ولكنه كان يميل الى التحقيق في بعض الأحيان ..

(١٦) المصدر السابق ج ١ ص ٣٣٦ .

بين الجسد والهزل

ان نظرة واحدة على كتاب تفح الطيب للمقرى تحمل على الحكم بأن الرجل لم يكن متزمتا شديد التزمت ولا متحرجا كثير الحرج . فهو على علمه وفقهه ، وروايته للحديث ، واملائه لصحيح البخارى تغلب عليه ناحية الظرف والدعابة والنكتة المستملحة ، والمعاينة . ويغلب على صاحبنا طبع الأدباء ، وظرف الشعراء ، أكثر مما يغلب عليه سمت العلماء ، وتزمت الفقهاء . فهو رجل دين ، وشيخ رواية ، وصاحب دراية . ولكنه فى الوقت نفسه رجل يطرب للمجالس الأدبية ، ويهتز للنكتة حتى ولو كانت لاذعة ، ولكنه لا يطلق لنفسه العنان فى المعاينة ، مخافة أن يجره ذلك الى الخروج عن الوقار . وهو لا يحب المجتمع المتزمت ، ولا الندوات الجافة ، وآثر عليها فى دمشق ندوات الأديب الشاعر الطريف أحمد شاهين وثلته .

ويخيل الى أن الرجل كان حائرا بين سمت الفقيه العالم ، وسمه الأديب الطريف ، وكان حريصا على دور العالم أكثر من حرصه على دور الأديب . ولعل مجالس تلمسان ، ومراكش ، وفاس ، والقاهرة ، والحجاز ، والقدس لم ترقه لما فيها من صرامة وجد ، فأحب مجالس دمشق الأدبية ، وندواتها الشعرية ، حيث كانت

تدور الأحاديث ، والأخبار ، والفكاهات . وحيث كان يحلو السمر ، والمطارحة . وحيث كان رواد تلك المجالس الدمشقية يتخففون كثيرا من التوقر المصنوع ، ويرسلون النفس على سجيتها ، ولا يبالون بالنكتة أين تقع ، وعلى من تقع !

وعاد المقرئ بعد زيارة دمشق القصيرة الأمد ، وبعد انطلاقاته السحرية فيها ، الى القاهرة ومجالس علمها وفقهها . وعكف في القاهرة على تأليف « تفح الطيب » ووجد فيه متنفسا لما فاته من المتع التي كان يصده عنها مركزه في الفقه ، ومحلّه في العلم ، ومنزلته في الحديث .

وهنا ترى الرجل ينزع منزع التلذذ بالهزل وذكره ، ويميل الى رواية أخبار المجون ، وحكايات الأحماض ، ولا يتورع عن الاغراق في روايتها ، والتكثر من ذكرها ، كأنه يجد في ذلك اللذة التي ظل حياته محروما منها .

ولا بأس بأحاديث المجون ، وأحاديث الهزل اذا كانت من « أديب » لا يرى فيها بأسا ، بل يجد فيها ارضاء لنزعة خاصة . فالجاحظ لم ير بأسا في بعض رسائله — كمفاخرة الجوارى والعلمان — أن يصرح بأدب مكشوف تستحي الأذن المتزمته أن تستمع اليه . وذكر فيها من الألفاظ والعورات والأدب الجنسي المفضوح ما لا يزال يستغرب صدورّه من مثله . وعلل لذلك بتعليلات لا مجال هنا للحكم عليها . ولم يكتف الجاحظ بما ذكره في تلك الرسالة من فاحش اللفظ ، وجارح التعبير ، بل رأى أن

يضيف اليها (مقطعات من أحاديث البطالين والظرفاء ، ليزيد القارىء لهذا الكتاب نشاطا ، ويذهب عنه الفتور والكلال ...!) (١).

وكذلك كان « العاملى » صاحب كتابى الكشكول والمخللة ، فقد كان عالما مفسرا فقيها محدثا ، ولكنه لما تصدى لتأليف الكشكول غلبت عليه نزعة الأديب ، وانقلت من تزمت العلماء وتوقرهم ، فروى فى كتابه ألوانا من المجون والهزل والاحماض ، التى يستغرب صدورها من عالم فقيه ..

ولقد أحس المقرئ بما روى فى نفح الطيب من هزل ومجون ، فطلب من الله (أن يصفح عن زلاتى ، ويسامحنى فيما أوردت فى هذا الكتاب من الهزل والمجون ، الذى جرت المناسبة اليه والحديث شجون . وما القصد منه الا ترويح قلوب الذين يسوقون عيس الأسمار ويزجون ..) (٢) .

ويصرح المقرئ هنا بأن الذى ساقه الى ذكر الهزل والمجون فى كتابه هو المناسبة ، وشجون الحديث ، وترويح القلوب . ولكننا لا نزال على رأينا بأن المقرئ العالم الفقيه المحدث لم يكن له أن يحشو كتابه بحكايات وأشعار وأخبار فى الأحماض والمجون لم يكن هناك محل لها ، ولا داع اليها ، مهما كانت المناسبة أو شجون الحديث .

(١) رسائل الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - ج ٢ - ص ١٢٥ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٦٣ .

وقد يلتبس للرجل العذر بأنه أديب في كتابه هذا ، لا فقيه ، وأنه جعل من كتابه موسوعة شاملة حافلة ، لا تتسع للأندلس وأخبارها وتراجم رجالها وذكر بلدانها فحسب ، ولا تتسع لترجمة الوزير لسان الدين بن الخطيب فقط ، بل تتسع أكثر من هذا لطائفة كثيرة من الأسمار والمحاضرات والأخبار الأدبية ، والمفاكهات والمعابثات ، التي لم ير بأسا في وضعها بجانب الشعر الديني ، أو الشعر الصوفي ، أو المدائح النبوية ، أو الأحاديث الشريفة ، أو الآيات الكثيرة من كتاب الله ..

وما أشبه المقرئ في هذا « بالراغب الأصفهاني » صاحب كتاب « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء » الذي لم يتورع فيه من أن يذكر أخبارا وأشعارا خليعة ماجنة متهتكة ساخرة قليلة الحياء ، بل معدومة الحياء .. والذي يصرح بتسويغه للهزل قائلا : (ومن لا يتحلى في مجلس اللهو إلا بمعرفة اللغة والنحو كان من الحصر صورة ممثلة ، أو بهيمة مهملة ..) .

وليست المسألة مسألة عصر وشيوع المجاعة فيه ، وغلبة الفحش عليه . فالجاحظ كان في القرن الثالث ، والراغب الأصفهاني كان في القرن الخامس ، ومع هذا روى من الهزل ما لا يقل عن القرن العاشر أو الحادي عشر اللذين قد يقال إن الفساد والانحلال الخلقي قد شاعا فيهما وغلبا عليهما .

وما كان أغنى المقرئ عن أن يخلط في كتابه تفح الطيب بين الجد والهزل ، وأن يمزج فيه عملا صالحا وآخر سيئا ! فكتابه

هذا ليس كتابا في الأسماء والمحاضرات والنوادر والأخبار حتى يباح فيه رواية الهزل والمجون ، ولكنه دراسة للأندلس من ناحية ، ودراسة وسيرة للسان الدين بن الخطيب من ناحية أخرى ، فما الحاجة فيه الى التكثر من الهزل الذي لم يفتأ يعتذر منه في غير موضع ؟ . حتى لتراه يسأل الله أن يكون ما طلبه فيه من الهزل مكفرا بالجد المذكور فيه (٣) .

وقد بلغ من ادراك المقرئ لشناعة ما أورده في تفح الطيب من الفحش والمجون ما عقب به على شعر رواه للمطرف ابن عبد الرحمن يصرح فيه الشاعر بأنه أفنى عمره في الشرب والوجوه الملاح والنشوة ولم يستمع الى صوت المؤذن وهو يدعو الى الفلاح .. ويقول المقرئ في تعقيبه : (والعياذ بالله من هذا الكلام ، وحاكى الكفر ليس بكافر !) (٤) . على أن استعاذة المقرئ بالله هنا ليست من فحش الشاعر ، ولكن من انصرافه عن الاستماع الى داعي الصلاة والفلاح !

ويحس المقرئ مرة أخرى بشناعة ما رواه من أخبار الهزل وأشعار المجون — وخاصة الأشعار الغلامية — فيقول شبه معتذر : (والله سبحانه يسمح للجميع ، في هذا الغزل الشنيع ، ويصفح عنا في ذكره ، انه مجيب سميع !) (٥) . على أنه — غفر الله له — كان له منادح واسعة عن هذا

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٨٧ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٢٩ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٠٣ .

الاعتذار ، بالسكوت جملة عن ذكر هذه الأخبار والأشعار ..
ثم ما هذا الشعر المفضوح الذى يرويه المقرئ مما قالته ولادة
فى الشاعر ابن زيدون ؟ لقد كان أولى بالمقرئ أن يتنخل ويتخير ،
وأن لا يجمع كل شئ كحاطب ليل ، فيأتى فى شعر ولادة من صريح
ألفاظ العورات والسوءات ما يستحى منه أرباب المروءات ؟ (٦) .
ثم ما هذا الشعر الماجن المفحش الذى يرويه صاحبنا للأعمى
التطيلي ، الشاعر المشهور ، هاجيا زنجيا فاسقا مغرما بالغلمان ؟
ان المقرئ معذور فيما رواه فى تفح الطيب من هزل ومجون ،
فهو لم يخرج على سبيل أسلافه من العلماء الذين لم يتخرجوا من
رواية هذا الكلام ، فقد كان ابن قتيبة — وهو مفسر لكتاب الله
فاهم لتأويل مشكله — يدخل المفاكهات والمزاحات فى بعض
كتبه — وخاصة عيون الأخبار — ويعلل ذلك بالترويح عن
القارئ من كد الجد ، وأتعاب الحق ، فان الأذن مجاجة ، وللنفس
حمضة . وقد كان ابن قتيبة فاهما تمام الفهم ، ومدركا تمام الإدراك
لاختلاف ميول الناس بين الجد والهزل ، فأحب أن يجعل من
كتابه معرضا للاثنتين حتى يأخذ منه القارئ ما يوافق ميله ،
ويصادف هواه . وعبر عن ذلك فى عبارة بليغة قائلا : (واعلم
أنك ان كنت مستغنيا عنه — يعنى عن المزح — بتسكك ، فان
غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج اليه ، وان الكتاب
لم يعمل لك دون غيرك ، فيهيأ على ظاهر محبتك . ولو وقع فيه

(٦) المصدر نفسه ص ٤٤٨ .

توقى المتزمتين لذهب شطر بهائه ، و شطر مائه ، ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل اليه معك .. (٧) .

ولقد استأنس ابن قتيبة في جواز ايراد الهزل والافصاح بذكر العورات في كتابه ، بما أثر عن أبي بكر ، وعلى بن أبي طالب ، بل بما أثر عن النبي من هذا . ولقد سار المقرئ في الدرب نفسه ، فاستأنس في مروياته عن جواز الافصاح بذكر ألفاظ العورات وما اليها بما أثر كذلك عن عبد الله بن عباس !!

ولم تغب كل هذه المأثورات ، عن العلماء والفقهاء الذين أجازوا روايتها في مصنفاتهم ، بل كانت هي حجتهم في التوسع في الموضوع وفتح الباب على مصراعيه ، كما فعل الجاحظ ، والراغب الأصفهاني ، والعاملي ، والأبشيهي ، والمقرئ في القديم ، وأحمد فارس الشدياق في الحديث .

ولهذا لم يجد صاحبنا المقرئ حرجا في ايراد هذا السيل من المجون والهزل في كتابه تفح الطيب ، ولم يجد غضاظة ولا مأثما في أن يلتقى في هذا الكتاب الورع بالنسق ، والتدين بالفحش ، والتصون بالمجون ، أو في أن تقع موعظة حسنة ، ونصيحة خالصة في صفحة ، ثم يعقبها في الصفحة التالية حكاية ماجنة ، أو شعر مكشوف . ولعله في هذا كان ينظر الى ما قاله ابن قتيبة في مقدمة عيون الأخبار : (وانما مثل هذا الكتاب مثل المائدة ، تختلف فيها مذاقات الطعوم ، لاختلاف شهوات الأكلين ..) .

(٧) عيون الأخبار - المقدمة ص . ل .

المدح النبوى

لقد جمع المقرئ بين الكتابة والشعر ، فهو كاتب ذو أسلوب معين كما جاء فى فصل خاص من فصول هذا الكتاب ، وهو شاعر كذلك رويت له قصائد وأشعار كثيرة كما ذكر فى فصل خاص عن الشاعر المقرئ .

وتلفت النظر فيما أثر لنا من شعر شهاب الدين المقرئ طائفة من القصائد النبوية نظمها الرجل اما توسلا بالنبي حين متع ناظره بزيارة الروضة الطاهرة فى مدينة الرسول عليه السلام ، واما مدحا للنبي على نحو ما كان يفعل شعراء المدائح النبوية فى العصور المختلفة .

ولقد أطل شهاب الدين المقرئ رواية كثير من المدائح النبوية له ولغيره من الشعراء فى مقدمة كتابه « تفح الطيب » ، وهى مقدمة طويلة أسماها « خطبة الكتاب » على نحو ما كان المؤلفون يسمون مقدمات كتبهم . وأطلق فيها لقلمه العنان متقلا بين ترجمة لسيرته ، وذكر لرحلته من المغرب الى المشرق ، ووصف لزيارته الى الأماكن المقدسة ودمشق ، وتصوير لما كان يعتلج فى صدره من الحنين الى وطنه الذى أرغمت الظروف على مغادرته . وكأن المقرئ قد أحس بأن ما رواه من شعر المدح النبوى فى خطبة النفح قد زاد فى الطول

على ما قد تحتمله مقدمة كتاب ، فاستدرك ما قد يثار من اعتراض
على هذه الاطالة قائلا : (وربما يقول من يقف على سرد هذه
الأمداح النبوية : الى متى وهذا الميدان تكل فيه فرسان البديهة
والروية ، فأنشده في الجواب قول بعض من أم نهج الصواب :

لأديمن مديح المصطفى فعل من في الله قوئى طمعه
فعسى أنعم في الدنيا به وعسى يحشرنى الله معه ..)

وقد نسب شهاب الدين المقرئ شعر المدائح النبوية الذى
أورده في النفح الى أصحابه كعاداته دائما في كتبه التى حشدها بكل
طريف من الشعر فى أغراض مختلفة . فاذا غاب عنه اسم الشاعر
الذى ينقل عنه ويروى له ، خرج من ذلك بقوله : وتذكرت
(قول بعض الوشاحين من الأندلسيين الذين كان لهم ارتحال الى
تلك المعاهد الطاهرة ، والمشاهد الزاهرة التى تشد اليها الرحال)
أو بقوله حين زار المسجد الأقصى وزار محل معراج النبى عليه
السلام : (وكان حقى أن أنشد هنالك ما قاله بعض الموققين ،
وهو مما ينبغى أن تزمزم به الحداة) . ففى هذين الموضعين لم يقل
لنا شهاب الدين المقرئ من هو الوشاح الذى نقل عنه ، ومن هو
الشاعر الآخر الذى عبر عنه بقوله : بعض الموققين .

وسكوت المقرئ عن ذكر أسماء شعراء المديح ، كسكوته عن
ذكر أسماء الشعراء الذين يروى لهم شعرا فى أغراض أخرى ولكنه
لا يسجل أسماءهم لغيابها عن حفظه ، أو لأنها مما لم يعرف طريقا
الى روايتها ونسبتها الى أصحابها .

على أنه كثيرا ما يورد شعرا في المدح النبوى فى خلال السرد
لتنقلاته فى الزيارة دون اشارة الى أنه سيورد شعرا له أو لغيره ،
فيأتى شعر المدح النبوى فى أعقاب الجمل النثرية بدون تمهيد له
أو اشارة اليه . فلا يدرى القارئ اذا كان هذا الشعر للمقرى
نفسه أم لغيره ، كقوله حين زار المشاهد الاسلامية التى بان فيها
الحق واشتهر : (ونسينا بمشاهدة ذلك الجنب ما كنا فيه ، وسبق
الدمع الذى لا يعارض الفرح ولا ينافيه :

| | |
|-----------------------------|------------------------------|
| أيها المغمم المشسوق هنيئا | ما أنالوك من لذيذ التلاقى |
| قل لعينيك تهملان سرورا | طلما أسعداك يوم الفراق |
| واجمع الوجد والسرور ابتهاجا | وجميع الأشجان والأشواق |
| وامر العين أن تفيض انهما لا | وتوالى بدمعها المهرق |
| هذه دارهم وأنت محب | ما بقاء الدموع فى الآماق ؟) |

فورود هذا النص الشعرى عقب العبارة النثرية التى تسبقه
لا يدلنا على قائله . وقد يكون من باب الاستشهاد الشعرى دون
ذكر القائل كما كان يجنح بعض الكتاب وخاصة فى العصور التى
سبأ فيها الاستشهاد بالشعر فى أثناء الكتابة ، كما قد يكون الشعر
للمقرى نفسه ولكنه لم يقل فى التمهيد له بعض العبارات الدالة
على أنه من نظمه ؛ مثل عبارة : قلت ، وقولى ، ثم قلت مضمنا ،
وغيرها من أمثال هذه العبارات .

ولو أنه كان للمقرى ديوان شعر يجمع أشعاره المتفرقة كلها
لكننا استطعنا أن نرد شعر المدائح النبوية فى مقدمة النفح الى

قائله . ولكن ثبت مؤلفات المقرئ المخطوط منها والمطبوع لا يشتمل على ديوان له مع كثرة ما نظمه من أشعار ، ولا نعرف له غير شعره المتفرق في ثنايا كتبه الا قصيدته المزدوجة التي جنح فيها الى رياضة القول على شعر الغزل والدعابة المكشوفة والتظرف في القول . وقد طبعت هذه القصيدة المزدوجة بمصر منذ أكثر من مائة عام .

على أننا نميل الى أن المدائح النبوية التي وردت في مقدمة « نفح الطيب » دون نسبة الى قائل هي من شعر شهاب الدين المقرئ نفسه ، فقد كان من عادة الرجل أن يقحم شعره في وسط الكلام وتضاعيف القول دون تمهيد لذلك ^(١) كما صنع في قصيدته المشهورة التي مطلعها .

سبحان من قسم الحظوظ ظ فلا عتاب ولا ملامة
وهي قصيدة طويلة تبلغ عدة أبياتها في النفح مائة بيت وثلاثة أبيات . وقد تولى المقرئ نفسه شرحها في كتاب يقع في أربع كرايس . ولم نطلع على هذا الشرح مطبوعا أو غير مطبوع . ويذكر صاحب كتاب « اليواقيت الثمينة » أنه اطلع على هذا الشرح . على أن لنا كلاما في الأبيات الأربعة الأولى من قصيدة :

(١) كما كان من عادته أيضا أن يقحم شعر غيره في وسط كلامه دون أن ينسبه لقائله كما في الأبيات النونية التي حشرها في مقدمة « أزهار الرياض » كأنها له مع أنها للأديب لسان الدين بن الخطيب . وتجد تفصيل هذا في الباب الخاص بالمقرئ الشاعر .

سبحان من قسم الحظوظ ، يجد القارىء الكريم وجه التحقيق فيه
في موطن آخر من هذا الكتاب .

ومن الشعراء الذين استشهد الشهاب المقرئ بشعرهم في
المدائح النبوية « عالم الأندلس عبد الملك السلمى المشهور
بابن حبيب » القائل من أبيات :

| | |
|-------------------------------------|----------------------------|
| لله در عصابة صاحبها | نحو المدينة تقطع الفلوات ! |
| ومهامه قد جبتها ومفاوز | ما زلت أذكرها بطول حياتي |
| حتى أتينا القبر قبر محمد | خص الأله محمدا بصلاة |
| خير البرية والنبي المصطفى | هادى الورى لطرائق لنجاة |
| ومنهم « الرعينى الغرناطى » القائل : | |

| | |
|---------------------------|-----------------------------|
| هذه روضة الرسول فدعنى | أبذل الدمع فى الصعيد السعيد |
| لا تلمنى على انسكاب دموعى | انما صنتها لهذا الصعيد .. |

ومنهم « كمال الدين ناظر قوص » ، ولعله كمال الدين
الأدفوى المصرى صاحب كتاب « الطالع السعيد ، الجامع لأسماء
الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد » .

ومن الشعر الذى ذكره المقرئ فى المدائح والتوسلات النبوية
ولم ينسبه لقائل وأغلب الظن أنه له ، قوله :

| | |
|---------------------|--------------------|
| اليك أفر من زلى | فرار الخائف الوجيل |
| وكان مزار قبرك بالـ | مدينة منتهى أملى |
| فوفى الله ما طمحنت | له نفسى بلا خسل |

فخذ بيدي غريق في بحار القول والعمل
وهب لي منك عارفة تعرف ما تسكر لي
وتهديني الى رشدي وتمنعي من الزلل
وتحملني على سنن يؤمنني من الوجل
فأنت دليل من عميت عليه مسالك المسبل

ومما يميل بنا الى القول بأن المدائح النبوية غير المنسوبة لقائل
هي للمقرئ نفسه أنه في قصيدة أو مدحة نبوية خماسية يشير الى
أنه لولا تعلق حقوقه ببلاد المغرب لأقام في رحاب النبي عليه السلام
حتى يتاح له أن يموت هناك ويدفن في أرض البقيع الطاهرة .
وفي هذه الخماسية يقول صاحبنا :

مدحى لخير العالمين عقيـدتي
ومطيتي ، بل طييتي ونشـيدتي
وتتيجتي ، وهدى اليقين مفيدتي
ولئن مدحت محمدا بقصـيدتي
فلقد مدحت قصيدتي بمحمد

يا خير خلق الله دعـوة حائر
يشكو اليك صروف دهر جائر
والله يعلم في هـواك سرائري
وهو الذي أرجو لعفو جرائري
متوسلا بجنابك المتسأطد

لولا حقوق عينت بمغارب
لمكثت عندك كى تتاح مآربى
ويكون فى الزرقاء عذب مشاربى
حتى أحلى من ثراك ترائبى
وأنا دفنا فى بقيق الغسر قد
ولكن أمنية صاحبنا لم يكتب له الله تحقيقها ، فقد مات
بالقاهرة ودفن فيها .

ويعترف شهاب الدين المقرئ — على كثرة ما نظمه من شعر
فى أغراض من القول مختلفة — بأن الشعر قد يكون فى بعض
الحين كذبا ، بل كذبا صراحا . الا مدح الرسول فانه حق ،
اذ لا سبيل لدخول الكذب عليه وتلبس الباطل به . فالمادحون
للأحياء قد يكون فى مدحهم شوائب من الكذب الذى تنال به
الزلفى الى الممدوح ، ويلتمس المال أو التقرب عنده ، وهى
أغراض دنيوية زائلة . أما مدح النبى فغاية المادح منه أن ينال به
رضى الله ورضوان الرسول ، وهى غاية لا تنال بالكذب وعدم
الصدق فى المديح . ويقول المقرئ فى هذا الصدد : (واذا كان
القريض فى بعض الأحيان كذبا صراحا ، والموفق من تركه والحالة
هذه رغبة منه وله اطراحا ، فخيره ما كان حقا ، وهو مدح الله
ورسوله ، وبذلك يحصل للعبد منتهى سوله) .

وأرجو أن لا تفوت القارئ الكريم هذه السجعات فى هذا
الكلام ، وهى سجعات يقدم لها المقرئ ويؤخر فى الألفاظ والحروف

ومتعلقاتها ، استجلابا لها واتباء اليها . كما في سبعة (رغبة عنه وله اطراحا) فهي سبعة قدمت في نسق الكلام فجاء على غير نسقه ، وكان حقه — لولا السبعة — أن يقول : (رغبة عنه ، واطراحا له) . وقد عالجنا السجع في أسلوب المقرئ في الفصل الخاص به من كتابنا هذا ، لولا أن هذه السبعة العارضة اعترضتنا فرأينا هنا أن لا نسكت على قلق موضعها !

وقد يتراوح شعر المدائح النبوية عند شهاب الدين المقرئ بين القوة حيناً والضعف أحيانا ، وهو مثل شعر أكثر الشعراء الفقهاء الصلحاء يغلب عليه التقليد والمحاكاة ورص الألفاظ ، أكثر مما تغلب عليه المائية الشعرية والطلاوة والقوة واقتراع المعاني الأبتكار ، ك شعر حسان بن ثابت ، والبوصيري في بردته الميمية وهمزته ، وأحمد شوقي في نهج البردة . الا أن ذلك لا يمنعنا أن نشير الى مدحة ميمية نبوية للمقرئ جيدة الصياغة ، حسنة السبك يقول فيها رحمه الله :

ليس كل القريض يقبله السم —

ع وتصغى لذكره الأفهام

ان بعض القريض ما كان هزءا

ليس شبيها ، وبعضه أحكام

وأجل الكلام ما كان في مد

ح شفيع الورى عليه السلام

عليب العسرف دائم الذكر لا تأ
تى الليالى عليه والأيام
مثل زهر قد شق عنه كمام
أو كمسك قد فض عنه ختام
ليس تحصى صفات أحمد بالعد
كما لم تحط به الأوهام
ولو ان البحار حبر وما فى الأ
رض من كل ثابت أقلام
فتويل المديح فيه قصير
وحسام ماض لديه كهـ
ولسان البليغ للعى ينمى
وكذا صيب القصص جـ
كيف يحصى مديح مولى عليه اللـ
ه أثنى وذكره مستدام
وله المعجزات والآى تبدو
لا يغطى وجوههن لشـ
فمن المعجزات أن سـ ليلـ
وجميع الأنام فيه نـ
راكبا للبراق حتى أتى القـ
س وفيه رسل الاله الكرام

فاستووا خلفه صـفـوفا وقالوا

صل يا أحمد ! فأنت الامـسـام

فعليه من ربه صـسـلوات

زاكيات مع صحبه وسـسـلام

ويلاحظ أن شهاب الدين المقرئ كان لا يفتأ في مواضع كثيرة من كتبه يستشفع بالنبي عليه السلام ، ويتوسل اليه . مما يؤكد أن قلب هذا الرجل قد أشرب بحب النبي . ففي صفحة ٦٣ من الجزء الأول من تفح الطيب يعيد التوسل بالنبي قائلا : (ومن يتوسل بالنبي محمد شفيع البرايا ، السيد السند الأسنى ، فذاك جدير أن يكفر ذنبه ، ويمنح نيل القصد والختم بالحسنى) .

وهو فوق ذلك كثير الاستشهاد في كتبه بالمدائح النبوية لشعراء المدح النبوى . ولا يخص من ذلك كتابا بعينه كتفح الطيب مثلا ، ولكن « أزهار الرياض » مملوء بمثل ذلك . كأن قلب الرجل وعينه موكل بمدائح الرسول ، فلا تقع عينه على مدحة نبوية ، ولا يتعلق خاطره بأبيات في مدح النبي عليه السلام الا رواها ، ولا يجد حرجا في اطالة الرواية في هذا المجال ، بل يجد تلذذا وسعادة قلبية ، مهما كانت حال الشعر المروى من ضعف النظم والتكلف . فانه يتبرك بكلام الصالحين من ناحية ، ويسعد بروايته للمدح النبوى من ناحية أخرى .. فقد روى قصيدتين لابن العفيف الزينبي في الصلاة على النبي ومدحه ، ثم ذكر لنا العلة في اختيارهما مع ظهور التكلف فيهما قائلا : (وانما أثبت هاتين القصيدتين في

جملة ما سردته ، وان كان فيهما من التكلف ما لا يخفى ، لأوجه :
أحدها أن صاحبها من الصالحين يسلم له ، ويتبرك بكلامه . ومن
اعترض على مثله يخشى عليه من تسديد السهام لملامه . الثاني :
أنها مدح النبي صلى الله عليه وسلم . وعليه من الله أزكى صلاته
وأتم سلامه) .

وقد أورد صاحبنا في جزء من « نفح الطيب » مدائح نبوية
كثيرة في بضع وثلاثين صفحة (٢) . وكانت المناسبة في روايتها أنه
روى لابن الجيان المحدث الراوية الكاتب الشاعر تخميسا في مدح
الرسول يقول في مطلعها :

الله زاد محمدا تكريما وحباه فضلا من لدنه عيميا
واختصه في المرسلين كريما ذا رافة بالمؤمنين رحيميا
صلوا عليه وسلموا تسليما

وما كاد ينتهى من رواية هذا التخميس النبوى حتى مضى
يروى لنا سيلا من المدائح النبوية والتخميسات كمدحة الفقيه
أحمد بن عباس المغربي ، ومدحة أبى القاسم الأشبيلي الشهير
بابن القصير ، ومدحة العارف بالله ابن العريف ، وقصيدة الشيخ
أبى عبد الله بن عمران التى رتب أوائل الأبيات فيها على حروف
المعجم ، فالييت الأول أوله ألف ، والثانى أوله باء ، والثالث أوله

(٢) نفح الطيب ج ٤ من ص ٤٤٠ الى ص ٤٧٧ .

تاء وهكذا حتى آخر القصيدة ، وقصيدة ابن موسى القرطبي
وهي من الخمسات .

ومن أجمل مروياته في هذا الباب القصيدة الخمسة للشاعر
الأندلسي الأشبيلي ابن سهل الأسرائيلي الذي شرح الله صدره
للإسلام . وندع المقرئ يقدم قصيدة ابن سهل في مدح الرسول
قائلا : (فمن ذلك قول أبي إسحاق إبراهيم بن سهل الأسرائيلي
الأشبيلي ، فإن بعضا ذكر أنها من قوله لما أظهر الإسلام ، وهي
لا تقتضي رفع الريبة فيه والاثهام ..) ثم أورد الخمسة عقب
ذلك ، ومطلعها :

جعل المهيمن حب أحمد شيمة وأتى به في المرسلين كريمة
فغدا هواه على القلوب تميمة وغدا هداه لهديهم تميما
صلوا عليه وسلموا تسليما

ويلاحظ هنا تعليق المقرئ بأن هذه المدحة النبوية من ابن سهل
الأندلسي لا ترفع عنه الريبة فيه والاثهام له . فقد رماه بعض
المؤرخين بعدم الأخلاص ، وقالوا انه كان يتظاهر بالإسلام ،
ولا يخلو من قذح واتهام ، حتى كان أبو الحسن بن سعة يقول :
(شيئان لا يصحان : اسلام إبراهيم بن سهل ، وتوبة الزمخشري
من الاعتزال ..) وماذا يرجو المتزمتون من رجل كان يهوديا ثم
أسلم فقال :

تسلت عن موسى بحب محمد

هديت ، ولولا الله ما كنت أهتدي !

على أن خمسة ابن سهل الاسرائيلي في مدح النبي لم تذكر
في ديوانه المطبوع ، ولهذا أوردتها المقرئ بصيغة تدل على
تضعيف الرواية حين قال : فان بعضا ذكر أنها من قوله لما أظهر
الاسلام .

والحق ان أدنى نظر ، وأيسر حظ من الذوق الأدبي تؤكد
لنا أن الخمسة التي رواها المقرئ لابن سهل ليست لهذا الشاعر
الراقي العبارة ، فليس أسلوبها من أسلوبه ، ولا ماؤها من مائه ،
فهي أقرب الى نظم الفقهاء الصلحاء منها الى شعر الأدباء الظرفاء
من أمثال ابن سهل . واذا قورنت هذه الخمسة بشعر ابن سهل
في ديوانه وجدت أنها من واد غير الوادي الذي كان يسيل
ابن سهل في أباطحه . فليس من نفس ابن سهل الأندلسي أن يقول
في مدح النبي :

الشافع المتوسل المتقبل القانت المذتر المزمسل
وافي وظهر الأرض داج محل فجلا البهيم به وأروى الهيم
صلوا عليه وسلموا تسليما

وما كانت هذه العبارات التوسلية مما عرف عن ابن سهل
بعد اسلامه . ولكن الذي عرف عنه وروى له هو قصيدته العينية
الجزلة السهلة التي يقول فيها مادحا النبي عليه السلام :

قلوب عرفن الحق بالحق وانطوت
عليها جنوب ما ألفن المضاجعا

إذا ما اثنوا أو رجعوا الذكر خلتهم
غصونا لدانا ، أو حماما سواجعا
تضيء من التقوى خبايا صدورهم
وقد لبسوا الليل البهيم مدارعا
تكاد مناجاة النبي محمد
تم بها مسكا على الشم ذائعا
تخالهم النبت الهشيم تغسيرا
وقد فتقوا روضا من الذكر يانعا
ولم يكتف شهاب الدين المقرئ بما رواه في « النفح » من
مدائح نبوية ، ففي « أزهار الرياض » يروي مدائح أخرى
كالقصيدة النونية التي نظمها الوزير لسان الدين بن الخطيب في
مدح الرسول ، وهي مشهورة معروفة ومطلعها :
سل ما لسلمى بنار الهجر تكويني
وحبها في الحشا من قبل تكويني^(٣)

وكقصائد ابن زمرك الأديب الشاعر الأندلسي المشهور التي
كان ينظمها في الموالد النبوية التي كان يقيمها سلاطين دولة
بنى الأحمر ملوك غرناطة . والحق انها مدائح نبوية قوية رصينة
العبارة جيدة السبك تليق بهذا الأديب الأندلسي الكبير . وفي
بعضها يقول متشوقا الى زيارة مدينة الرسول :

(٣) أزهار الرياض ج ١ ص ٣١٦ .

ألا ليت شعري هل تساعدني المنى
فأترك أهلي في رضاه وجيراني ؟
وأقضى لبانات الفؤاد بأن أرى
أعفر خدي في ثراه وأجفساني ؟
إليك رسول الله دعوة نازح
خفوق الحشا ، رهن المطامع ، هيمان !
غريب بأقصى الغرب قيّد خطوه
شباب تقضى في مراح وخسران (٤)
يتجدّد اشتياقا للعتيق وبانه
ويصبو اليها ما استجد الجديدان !
وكموشحات ابن زمرك النبوية أيضا ، وهي غير قصائده ،
ومدائح ابن الصباغ الجذامي ، وكقصيدة « عمرو بن خبازة »
الفاسي المغربي اليبائية في مدح الرسول . وهي طويلة تبلغ أبياتها
مائة وخمسين بيتا ، وقد وصفها المقرئ بأنها « فريدة نبوية » .
ويقول ابن خبازة في مطالعها :
حقيق علينا أن نجيب المعالي
لنفنى في مدح الحبيب المعاني
ونجمع أشتات الأعاريف حسبة
ونحشد في ذات الاله القوافي

(٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٤ .

ونقتاد للأشعار كل كتيبة
لنصر الهدى والدين تردى الأعاديا
فألسن أرباب البيان صوارم
مضاربها تنسى السيوف المواضيا
لنطلع من أمداح أحمد أنجما
تلوح فتجلو من سناه الدياجيا .. (٥)

لقد شارك المقرئ في ديوان شعر المدح النبوي بأبيات وقصائد
أشرنا إليها هنا وذكرنا بعضها ، ولكنه اشترك في رواية المدائح
النبوية بقدر كبير ، حتى ليصح لنا أن نقول ان كتابه : نفح
الطيب ، وأزهار الرياض يعدان مصدرا حافلا لهذا اللون من
المدح .

ولا تنكر هنا ما قلناه قبل صفحات من أن قلب المقرئ وعينه
كانا موكلين بمدائح الرسول ، فلا تقع عينه على مدحة ، ولا يتعلق
خاطره بأبيات الا رواها ، ولكننا نزيد هنا أن الرجل كان حتى
في مجالس التدريس التي يعقدها بالمغرب ينشد بعض المدائح
النبوية كمخمسة ابن الجيان ، وبعض مدائح أهل المغرب (الذين
لهم في منازل الأمداح النبوية مقل وتعريس) (٦) .

ألست معي — بعد هذا كله — ان شهاب الدين المقرئ كان
مشربا قلبه بحب النبي عليه السلام الى حد كبير ؟؟

(٥) أزهار الرياض ج ٢ — ص ٣٨٣ .

(٦) نفح الطيب — جزء ٤ ص ٤٤٣ .

بين النُصُوف وكرامات الأولياء

قلب الطرف أيها القارىء الكريم فى « نفح الطيب » بأجزائه الأربعة الضخمة فى طبيعته القديمتين نجد أن صاحبنا شهاب الدين المقرئ يهتم بأخبار التصوف والمتصوفة ، وكرامات الأولياء ، وقبور الصالحين اهتماما واضحا يلفت نظرك ، ويجذب التفاتك . فهو فى مواطن كثيرة من النفح لا يفتأ يذكر رجال التصوف وكراماتهم ومقاماتهم ، ويروى كثيرا من أخبارهم وغرائب أحوالهم ، ويحكىها حكاية المصدق لها ، المؤمن بها .

وليس ذلك غريبا على عصر شهاب الدين المقرئ من ناحية ، ولا غريبا على صاحبنا وميوله وموارثه الصوفية من ناحية أخرى . فقد التقى هنا ذوق العصر وميله ، مع ذوق المترجم له وميله . فكان من هذا اللقاء هذه الظاهرة التى نجدها فى اهتمامات شهاب الدين المقرئ التصوفية التى تبدو من الرجل أينما سار ، وحيثما حط الرحال . فهو فى المغرب وفى القاهرة وفى الاسكندرية وفى الحجاز وفى بيت المقدس ، وفى عاصمة الأمويين صوفى بتفكيره وميوله ومعتقداته ان لم يكن صوفيا بسلوك الطريق .

وإذا كان التصوف قد ظهر بمسلكه الواضح فيما قبل عصر المقرئ بقرون ، الا أن القرن العاشر الهجرى الذى ولد شهاب الدين

المقرى فى أخرياتة كان مجتلى واسعا لظهور موجة التصوف الاسلامى العربى على أشدها . فظهرت فى صدر ذلك القرن كثير من الطرق الصوفية المختلفة الطقوس والمراسم وآداب الطريق . ووجد « الملامتية » من أرباب التصوف سيلا الى الوقوع فى المآثم ، والتباهى بالمعصية . وهؤلاء هم الملامتية المتأخرون فى الزمن ، الذين نزلوا بهذا المذهب الصوفى الى درجة من الفساد والتدهور ، وبعدها به عن صفائه وطهره القديم .

ويكفى لتصوير العصر الذى ولد فيه شهاب الدين المقرى من ناحية التصوف أن تقتطف هنا ما قاله المؤرخ المغربى أبو العباس أحمد الناصرى فى كتابه المشهور « الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى » حيث سجل بعض « الأمور العظام » التى ظهرت فى صدر المائة العاشرة من التاريخ الهجرى : (ومنها ظهور الأولياء وأهل الصلاح من الملامتية ، وأرباب الأحوال والجذب ، فى بلاد الشرق والغرب ، لكنه افتتح به للمستورين على النسبة وأهل الدعوى باب متسع الخرق ، متعسر الرتق . فاختلط المرعى بالهبل ، وادعى الخصوصية من لا ناقة له فيها ولا جمل ، وصعب على جل الناس التمييز ، حتى بين البهرج والأبريز ، لا سيما العامى الغمر ، الذى لا يفرق بين الحصباء والدر . ويرحم الله الشيخ اليوسى ، اذ قال فى محاضراته ما نصه : « وقد طرق أسماع العوام من قبل اليوم كلام أهل الصولة ، كفحول القادرية والشاذلية رضى الله عنهم ، وكلام أرباب الأحوال فى كل زمان ، فتعشقت

النفوس ذلك ، وأذن له الجمهور ، وخاضوا في التشبيه بهم .
فما شئت أن تلقى جاهاً مسرفاً على نفسه ، لم يعرف بعد ظاهر
الشريعة ، فضلاً عن أن يعمل ، فضلاً عن أن يخلص إلى الباطن ،
فضلاً عن أن يكون صاحب مقام إلا وجدته يصول ويقول ،
وينابذ المنقول والمعقول . وأكثر ذلك في أبناء الفقراء ، يريد
الواحد منهم أن يتحلى بحلية أبيه ، ويستتبع أتباعه بغير حق
ولا حقيقة ، بل لمجرد حطام الدنيا ، فيقول : خدام أبي ، وزرية
أبي ! ويضرب عليهم المغرم كمغرم السلطان . ولا يقبل أن يحبوا
أحداً في الله أو يعرفوه أو يقتدوا به ، غيره . وإذا رأى من خرج
يطلب دينه أو من يدلّه على الله تعالى يغضب عليه ، ويتوعدده بالهلاك
في نفسه وماله . وقد يقع شيء من المصائب بحكم القضاء والابتلاء ،
فيضيفه إلى نفسه ، فيزداد بذلك هو وأتباعه ضلالاً . ثم يخرق
لهم من الخرافات والأمور المعتادة ما يدعيه سيرة وديننا يستهويهم
به ، ثم يضمن لهم الجنة على مساوئ أعمالهم ، والشفاعة يوم
المحشر . ويقبض على لحمة من ذراعه فيقول للجاهل مثله : أنت
من هذه اللحمة ! فيكتفى جهلة العوام بذلك ، ويبقون في خدمته
ولداً عن والد ، قائلين : نحن خدام الدار الفلانية وفي زرية فلان ،
فلا نخرج عنها ، وكذا وجدنا آباءنا . وهذا هو الضلال المبين .
وهؤلاء قطاع العباد عن الله) .

أرأيت إذن كيف يصور لنا الناصري المؤرخ ، والحسن اليوسى
العالم المراكشي الأديب ، انحراف التصوف عن نهجه القويم في

القرن العاشر ؟ وكيف بلغ تضليل شيوخ الطريق لأتباعهم ؟ وكيف يختلقون لهم من الخرافات ما يستولون به على عقولهم ، حتى لقد يضمنون لهم الجنة مع سوء أعمالهم ؟ !

فى ذلك العصر ولد المقرئ الأديب المؤرخ فأنحدرت اليه من جده أبى عبد الله محمد المقرئ نزعة صوفية ، فقد ذكر الأديب الشاعر الكاتب الوزير لسان الدين بن الخطيب فى ترجمته لذلك الجد أنه كان « يتكلم فى طريقة الصوفية كلام أرباب المقال ، ويعتنى بالتدوين فيها » (١) .

على أن الوراثة ترد الى أبعد من هذا الجد القريب . فان الأب الخامس لجدته أبى عبد الله ، واسمه عبد الرحمن بن أبى بكر ابن على المقرئ ، هو أول من انتقل من هذه الأسرة من مدينة مقرة الى مدينة تلمسان ، وكان فى صحبة شيخ من كبار شيوخ (٢) الصوفية بالمغرب هو ولى الله سيدى أبو مدين شعيب بن الحسن التلسانى الأندلسى الأصل الذى أقام بفاس ، وسكن بجاية وكثر بها أتباعه ومريدوه كثرة جعلت السلطان يعقوب المنصور يخافه ويخاف على سلطانه منه ، وكان ذلك فى أخريات القرن السادس الهجرى .

فالعصر وموارث الأسرة والميل الخاص قد تلاقت كلها لتجعل من شهاب الدين المقرئ رجلاً ذا مزاج صوفى خاص . فهو لا يعرف

(١) نفح الطيب للمقرئ . ج ٣ ص ١١٢ .

(٢) المصدر نفسه صفحة ١١٠ .

ولا يسمع ولا يمر بكرامة لولى من الأولياء ، أو شيخ من المتصوفة
الا ذكرها ، كما فعل مثلاً في ترجمته لأبى العباس المرسى ، وهو
يذكر الوافدين على الشرق من بلاد الأندلس ، فيصفه أولاً بقوله
انه « ولى الله العارف به الشيخ الشهير الكرامات الكبير
المقامات » . ثم يقول عنه في آخر ترجمته « ان كلامه بحر لا ساحل
له ، وكراماته كذلك .. » ، ثم يختم الترجمة بذكر كرامة من
كراماته .

ولم يفت شهاب الدين المقرئ أن يشير في مقدمته الطويلة لكتاب
« تفح الطيب » الى أنه ذكر في كتابه « حكايات الأولياء الذين
طيب زهر مناقبهم فائح » . مما يدل على أن هذه الحكايات كانت
أحد الأغراض الأساسية في هذا الكتاب الذى أرخ به مؤلفه للوزير
لسان الدين بن الخطيب وللأندلس .

وحين يذكر المقرئ حكايات الكرامات للأولياء فانه يرمى
بذكرها الى تأييد الولاية لهم ، كأن الولاية وحدها لا تكفى
مالم تؤيد بذكر كرامة ، أو سرد حكاية . فقد روى حكاية عن
الفقيه العالم الطرطوشى صاحب كتاب « سراج الملوك » المشهور ،
وهى حكاية تدل على أن صاحب السراج أخبر — على سبيل
المكاشفة — بمقتل الأفضل بن أمير الجيوش وزير الفاطميين فى
مصر قبل حدوثه بساعات . ويروى شهاب الدين المقرئ هذه
الحكاية عن المؤرخ الصفدى ، ثم يعلق عليها قائلاً : (وهذه
الحكاية تكفى فى ولايته) .

وحين يترجم المقرئ للشاطبي نزيل الاسكندرية لا يفوته أن يصفه بأنه « أحد أولياء الله تعالى ، شيخ الصالحين ، صاحب الكرامات المشهورة » (٣) .

وقد يبلغ تصديق المقرئ للكرامات حدا لا تألفه طبائع الأشياء ، فحين ترجم لسيدى الحسن الحرالى الأندلسى الامام الزاهد الورع روى له بعض الكرامات ، ومنها أن الناس أصابهم جذب ببجاية ، فأرسل الشيخ الى داره من يسوق ماء الى الفقراء ، فامتنت كريمة (٤) ونهرت رسله ، فسمع كلامها ، فقال للرسول : قل لها : يا كريمة ! والله لأشربن من ماء المطر الساعة ، فرمق السماء بطرفه ، ودعا الله سبحانه وتعالى ، ورفع يديه ، وشرع المؤذن فى الأذان ، ولم يختم المؤذن أذانه حتى كان المطر كأفواه القرب .. !

وروى للحرالى كرامة أخرى ، ولم يسقها مساق الكرامة فيما عقب به على ترجمته ، بل ساقها خبرا عن حادث حدث كما تمناه الشيخ . فقد وقعت بين الحرالى وبين العز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء خصومة بشأن انتقاد العز لتفسير القرآن الذى صنفه الحرالى . وحمل العز على الحرالى حملات شديدة ، ووجه اليه النقد قائلا : أين قول مجاهد فى التفسير ؟ وأين قول فلان وفلان ؟ وبلغ من عنف حملة العز على الحرالى أنه قال فيه : يخرج من بلادنا ، فلما بلغ كلامه الشيخ قال : هو يخرج وأقيم

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٣٨٨ .

(٤) كريمة : جارية كانت أم ولده ، وكانت سيئة الخلق .

أنا ! وقد كان ذلك كذلك ، فقد خرج العز من بلده الشام ، وبقي فيها الحرالي حتى توفي بها سنة ٦٣٧ هـ .

ويتقبل المقرئ ما يسمعه ويرويه من كرامات الأولياء قبولاً حسناً ، فهو قبول المؤمن بها المصدق لها ، مهما كان فيها من غرابة ومخالفة للطبائع المألوفة ، والسنن الجارية ، ومهما كان فيها مما لا تجرى أصول الحياة به ، ولا تسير سنن الأشياء عليه . فهو حين يترجم ترجمة وجيزة لأبي زكريا بن هال القرطبي العالم الزاهد ومن رجال القرن الثالث الهجري ، يروي عن ابن الفرضي المؤرخ عن عباس بن أصبغ (ان ابن هال كانت في داره شجرة تسجد لسجوده اذا سجد !) (٥) .

ولا يجد شهاب الدين المقرئ استحالة في وقوع الكرامات من الأولياء والزهاد ، فقد روى ما حكاه الشيخ محيي الدين ابن عربي عن نفسه من كرامات معلقة على ذلك بقوله : (وقد حكى الشيخ رضى الله تعالى عنه عن نفسه في كتبه ما يبهر الألباب ، وكفى بذلك دليلاً على ما منحه الله الذي يفتح لمن شاء الباب) . وكأنه بهذا يؤكد ما قاله الصوفي الامام عبد الوهاب الشعراني عن كرامات ابن عربي : (وأما كراماته ومناقبه فلا تحصرها مجلدات . وقول المنكرين في حق مثله غثاء وهباء لا يعاب به) (٦) . ولقد زار المقرئ قبر محيي الدين بن عربي بدمشق ،

(٥) نفح الطيب ج ٢ - ص ١٣ .

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٠٦ .

ولم يكتف بالزيارة بل أكد أنه تبرك بالقبر مرارا ورأى لوائح الأنوار عليه ظاهرة (ولا يجد منصف مجيدا الى انكار ما يشاهد عند قبره من الأحوال الباهرة) .

ولم يكن قبر ابن عربى هو المزار الوحيد ، والمشهد الفرد الذى زاره شهاب الدين المقرئ فى خلال جولاته الكثيرة فى العالم الإسلامى من المغرب الى المشرق . فقد وفد على « طيبة » مدينة الرسول عليه السلام سبع مرات (واستضأت بتلك الأنوار ، وألفت بحضرته صلى الله عليه وسلم بعض ما من الله به على فى ذلك الجوار ، وأملت الحديث النبوى بمراى منه عليه الصلاة والسلام ومسمع) .

وحين زار المسجد الأقصى للمرة الثانية — بعد زيارته الأولى سنة ١٠٢٩ هـ — انتهز الفرصة فزار مقام الخليل ومن معه من الأنبياء ، ثم استوعب أكثر تلك المزارات المباركة كمزار موسى الكليم .

وحين يترجم المقرئ لأبى العباس المرسى — رضى الله عنه — يقول ان قبره بالاسكندرية مشهور بأجابة الدعوات ، ويتحدث عنه قائلا : (وقد زرت مرارا كثيرة ، ودعوت الله عنده بما أرجو قبوله) فهو لا يقتصر على الزيارة ، ولا يكتفى بالتبرك ، بل يتجاوز ذلك الى الاتجاه الى الله بالدعاء وخاصة عند مزارات الأولياء الذين اشتهرت عند الناس قبورهم بأنها تجاب عندها الدعوات .

واذا كان المقرئ قد زار في دمشق قبر ابن عربي المتصوف ،
فأنه قبل وفوده الى المشرق قد زار بالمغرب قبر الامام القاضي
أبي بكر بن العربي صاحب المصنفات الجليلة التي منها « أحكام
القرآن » ويشير الى هذه الزيارة قائلا : (وقد زرته مرارا ،
وقبره هنالك — يعنى في فاس — مقصود للزيارة خارج القصبة) .

ولم يكن قبر القاضي ابن عربي هو الوحيد الذي زاره المقرئ
بالمغرب ، فقد زار بمراكش قبر أبي القاسم السهيلي صاحب كتاب
« الروض الأتف » في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، وتكررت
زيارته لهذا القبر كما تكررت لغيره من قبور الأولياء والعلماء
في المشرق والمغرب . ففي مراكش أيضا يحدثنا المقرئ أنه زار قبر
العارف بالله ابن العريف الأندلسي الذي تأسى عن كل رزية في
الحياة برزء المسلمين في فقد النبي عليه السلام حين يقول :

إذا نزلت بساحتك الرزايا فلا تجزع لها جزع الصبي
فإن لكل نازلة عـزاء بما قد كان من فقد النبي
والتعزى على مصائب المرء في الحياة بمصائب الآخرين قديم
في حدوثه ، وقديم في التعبير عنه ، حيث أجادت الخنساء في رثاء
أخيها صخر قائلة :

يذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على اخوانهم لقتلت نفسي ..

هذه حفنة من المزارات التي حج إليها مؤرخنا وأديبنا المقرئ .
وليست هي كل المشاهد التي زارها ، والقبور التي طاف بها ،
وتبرك بها ، ودعا عندها ، ولكنها نماذج تؤكد لنا ما قررناه من
ميول صوفية عند المؤرخ الأديب الذي صان لنا من تاريخ الأندلس
وحدث الشعر والشعراء ، ما لا يقاس بجانب هيكله الضخم حديثه
عن كرامات الأولياء ، وحكايات الزهاد والصلحاء ..

مُعَرِّفُ الشَّرْقِ بِالْمَغْرِبِ

يكاد يجمع الذين كتبوا عن تاريخ الأندلس أن كتاب « تفح الطيب » لشهاب الدين المقرئ هو من أوثق مصادرنا عن تاريخ هذا القطر الذي كان من أعظم الأقطار الإسلامية حضارة وازدهارا ، وأنه وثيقة أدبية تاريخية هامة عن الأندلس بعد أن ضاع كثير من الكتب القديمة الخاصة بهذا الموضوع بسبب ما توالى على تلك المملكة من نكبات أصابت العرب والمسلمين هناك في أيام انحلال دولتهم ، وذهاب ريحهم ، واضطرارهم الى الرحيل عن أوطانهم في حالة من الذعر لم يملكوا معها أن يحملوا شيئا من متاعهم وكتبهم التي بقيت في البلاد محجوبة عن أيدي أصحابها وأصحاب ذلك التراث الهائل ، أو أحرقت أو أغرقت في الأنهار بصورة تتنافى مع مظاهر المدنية والانسانية التي يدعيها الأعداء .

ومهما يقل في كتاب « المغرب في حلى المغرب » الذي صنفه بالوراثه ستة من أهل الأندلس أولهم أبو عبد الله محمد الحجارى صاحب كتاب « المسهب » الذى وفد على عبد الملك بن سعيد صاحب احدى القلاع القريبة من غرناطة فى القرن السادس ، فكلفه تأليف كتاب عن غرائب الأندلس وطرائف أهلها من الشعر والنثر ،

فكان كتاب « المسهب في غرائب المغرب » الذي يعد النواة الأولى أو نقطة الانطلاق لكتاب « المغرب في حلى المغرب » — مهما يقل في هذا الكتاب الذى أفاد منه شهاب الدين المقرئ ونقل عنه كثيرا فى كتابه تفح الطيب ، فإن أخباره وتراجم رجاله تنتهى الى ما يقرب من منتصف القرن السابع الهجرى حيث توفى على بن سعيد — — أحد المشاركين فى تصنيفه ، بل آخرهم — فى سنة ٦٨٥ هـ .

ومن هنا نقول ونحن مطمئنون ان كتاب المقرئ يزيد على كتاب « المغرب » بما امتد به من الزمن بعد وفاة ابن سعيد حتى عصر المقرئ فى القرن الحادى عشر .

ومن هنا تظل قيمة « تفح الطيب » بما حواه من أخبار عن الأندلس لا نجد لها فى غيره من الكتب التى ضاع أكثرها . وهو من هذه الناحية قد صان لنا كثيرا من المعلومات والمعارف الأندلسية على الرغم مما وجه اليه من نقد بسبب ما وقع فيه من مآخذ ومغامز ، وبسبب ما فاتته من مباحث ومسائل ، كما يقول الأمير شكيب أرسلان فى الجزء الأول من كتابه « الحل السندسية »^(١).

على أن هذه المآخذ لم تمنع منصفنا من تقدير تفح الطيب وانزاله منزلته الجليلة التى يستحقها ، فهذا الأمير شكيب أرسلان نفسه ، وهو أحد علمائنا الأعلام الذين شاركوا فى تعريف الشرق بالأندلس ، يقول : (اعلم أعزك الله أنه لا يزال تفح الطيب

(١) الحل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية — ص ١٥١ .

من أعظم المراجع التي يعول عليها المحققون في أخبار الأندلس .
والمقرى بما صنعه في كتابه تفح الطيب يعد من رجالنا الذين
حاولوا تعريف الشرق بالأندلس وبالغرب بعد أن أوجب طول
الشقة بين الناحيتين أن تظل أخبار الغرب العربى الاسلامى فى عزلة
عن مسامع المشاركة ، على الرغم مما كان يقوم به أهل الغرب
والأندلس من رحلات الى الشرق ونزول به ، وأقامة فيه ،
واستيطان له .

فهؤلاء المئات من الأعلام والعلماء والأدباء الذين وفدوا من
الغرب والأندلس الى الشرق كانوا أكبر دعاية لبلادهم ، وأعظم
عنوان لها ، بما ظهر هنا فى مشرقنا العربى من فضلهم وعلمهم
وحفظهم . ولكن هؤلاء الأعلام المتفرقين على مدى العصور ،
المتناثرين من عصر الى عصر ، لم يجمعهم سلك واحد فى كتاب
واحد يعرف بهم ، ويسجل آثارهم ، ويلهمهم فى نظام واحد حيث
تستطيع العين أن تقع عليهم بجملتهم لا بتفاريقهم .

وهذا هو الذى فعله شهاب الدين المقرى فى تفحه ، فقد جعل
الباب الخامس من كتابه فى التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين
الى بلاد المشرق . ولا شك أن هذه التعريفات تؤكد أسباب
التعارف والتقارب بين رجال العرب والاسلام على الرغم من
اختلاف ديارهم .

وإذا كان التعريف ببعض أقطار المشرق الاسلامية — غير
العربية — وتواريخ أعيانها وعلمائها قد أفاد كثيرا فى تقوية

الروابط بين المسلمين ، فان التعريف بالغرب والأندلس — على عروبتهما — مما يؤكد أسباب الارتباط بين أقطار الوطن العربى الكبير .

ومما يدل على الهدف الذى كان يرمى اليه المقرئ من التعريف بين المشرق والمغرب ، أنه لم يكتف بالتعريف بالراجلين من الأندلس الى المشرق ، بل أضاف اليهم بابا آخر تناول فيه التعريف بالوافدين من المشرق الى المغرب . وبهذا كانت عملية التواصل بين المشرق والمغرب على أكثر حالاتها توازنا واعتدالا . ولو أنه اقتصر على التعريف من ناحية واحدة لكان فى عمله مقصرا ، وفى ميزانه جائرا .

انك تشعر وأنت تقرأ نفح الطيب للمقرئ أنك أمام رجل يؤكد أسباب اللقاء والتواصل والتعارف بين اخوة باعد الزمان بينهم . وما أشد حاجتنا فى مثل ظروفنا الحاضرة الى هذا التعارف والذى صنعه المقرئ فى القرن الحادى عشر الهجرى فى هذا السبيل . هو الذى صنعه الأمير شكيب أرسلان فى زماننا هذا — أى فى القرن الرابع عشر — حيث شرع فى تصنيف المعلمة الأندلسية التى تحيط بكل ما جاء عن ذلك الفردوس المفقود ، وأسماها « الحل السندسية » ، ولكنها مع الأسف لم تتم ، ولم يظهر منها الا أجزاء ثلاثة . ولو أن حلل الأمير شكيب تمت لاستكمل بها عمل المقرئ ، وخاصة فيما أجمل الكلام فيه عن تاريخ السنوات الأخيرة من غرناطة ووقوع الأندلس كلها فى أيدي الأسبان . فقد رجع الى

مصادر أفرنجية كثيرة ، وخاصة بعض الكتب الأسبانية التي استعان على ترجمتها ببعض أصحابه من الأسبان وغيرهم .

وقد تقتضى ظروف التعريف بين أهل المشرق من ناحية ، وأهل الغرب والأندلس من ناحية أخرى أن يقع المعرّف على بعض الفروق والمفارقات بين الجهتين ، فلا يملك نفسه أن يشير إليها ، على سبيل المقارنة ، لا على سبيل المفاضلة . وهذا ما كان يلجأ إليه المقرئ أحيانا في تفح الطيب . وإن كان في كتابه « أزهار الرياض في أخبار عياض » قد عرض للموازنة بين المشاركة والأندلسيين في التأليف . وهي موازنة لم تكن من كلامه ، وإنما كان ناقلًا لها عن « بعض التعاليق لأحد المتأخرين » . فقد وازن هذا المعلق — الذي لم يذكر لنا المقرئ اسمه — بين طريقة تدريس « مدونة مالك » عند العراقيين من ناحية ، وعند علماء القرويين في فاس من أخرى . وهي موازنة تدل على فطنة ودقة وحسن تمييز . ولم يكتف المقرئ بنقل هذه الموازنة بين المشاركة والمغاربة في التأليف ، أو في تدريس مدونة الامام مالك ، بل أضاف إليها موازنة أخرى نقلها عن المعلق نفسه بين تأليف المشاركة وأهل الأندلس : (وأغلب تأليف المشاركة الايجاز ، لتمكن ملكتهم من التصرف ، مثل كتاب ابن الحاجب ، في فروعه وفي أصوله ، والخونجى في المنطق وغيرهما ؛ وإن كان الغالب على جل أئمة المشاركة الأطناب ، مثل الغزالي والامام الفخر وغيرهما . وأما أهل الأندلس فالغالب عليهم فيهقة البلاغة ، في حسن رصف الكلام

واتقائه ، مثل عبارة القاضي عياض في تأليفه ، التي لا تسمح القرائح بالاتيان بمثلها ، والنسج على منوالها (٢) .

ولا يكتفى المقرئ في نقل الموازنة ببلوغ هذا المبلغ ، بل يضيف اليه كلاما نقله عن ملكة العلوم النظرية ، (فهي قاصرة على البلاد المشرقية ، ولا عناية لحذاق القرويين والأفريقيين الا بتحقيق الفقه فقط . ولم يزل الحال كذلك الى أن رحل الفقيه ابن زيتون الى المشرق ، فلقى تلاميذ الفخر بن الخطيب ، ولازمهم زمانا ، حتى تمكن من ملكة التعليم ، وقدم الى تونس ، فانتفع به أهلها ، وانتهت طريقته النظرية الى تلميذه ابن عبد السلام المذكور ..) .

وزاد المقرئ في النقل حول قضية الموازنة بين أهل المغرب والمشاركة في التعليم والتأليف ، فنقل لنا كلاما عن الامام المؤرخ ابن خلدون ينكر فيه — في المقدمة — أنه ظهر في المائة الثامنة من سلك في التعليم طريق النظر بفاس ، بل في جميع أقطار المغرب (لأجل انقطاع ملكة التعليم عنهم ، ولم يكن منهم من له عناية بالرحلة ، بل قصرت همهم على طريق تحصيل القرآن ، ودرس « التهذيب » فقط ..) .

وحين يترجم صاحب النفح لعالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السلمى ، فانه يثير قضية معرفة الأندلسيين بالحديث النبوى ، وذلك بمناسبة ما نقله من أن السلمى (لم يكن له علم بالحديث يعرف به صحيحه من معتله ، ويفرق مستقيمه من مختله) ويعلق المقرئ

(٢) ازهار الرياض — ج ٣ ص ٢٣ .

على ما نقله قائله : (أما ما ذكره من عدم معرفته بالحديث فهو غير مسلم . وقد نقل عنه غير واحد من جهابذة المحدثين . نعم لأهل الأندلس غرائب لم يعرفها كثير من المحدثين ، حتى ان في شفاء « عياض » أحاديث لم يعرف أهل المشرق النقاد مخرجها ، مع اعترافهم بجلالة حفاظ الأندلس الذين نقلوها ، كبقى بن مخلد ، وابن حبيب وغيرهما ..) (٣) .

وفي هذه اللقاءات بين أهل الأندلس وأهل المشرق نرى بعض الصور الحية الطريفة التي كان يرويها المقرئ في بعض المناسبات حين الحديث عن تراجم الراحلين من الغرب الى بلاد الشرق . ولا تنسى هذه الصورة التي رواها وسجلها للفقهاء الأندلسي يحيى ابن يحيى الليثي الذي روى « الموطأ » عن الامام مالك حين وفوده عليه من الأندلس الى الشرق لتلقى الفقه عنه . فقد ارتحل يحيى الى الامام مالك بالمشرق ، ولازمه ليأخذ العلم عليه . وبينما هو في مجلسه مع جماعة من أصحابه وتلاميذه اذ قال قائل : حضر الفيل ! فخرج أصحاب مالك كلهم لرؤية الفيل ، ولم يخرج يحيى ، فقال له الامام مالك : مالك لم تخرج وليس الفيل ببلادك ؟ ! فقال يحيى : انما جئت من الأندلس لأنظر اليك ، وأتعلم من هديك وعلمك . ولم أكن لأنظر الى الفيل . فأعجب به الامام مالك ، وقال : هذا عاقل الأندلس !

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٧ .

أرأيت أن المقرئ — في سبيل التعريف بين المغرب والأندلس ،
وبين المشرق — لم يدع طريقة أو حكاية أو نادرة تمر بباله
ألا ذكرها ؟

وكان المقرئ يحس بالفروق بين المغاربة والمشاركة في بعض
وجوه من التعليم والزي والفكر واستعمالات الألفاظ ، وتسمية
الأشياء ، فلا يلبث أن يشير إليها ، وهي اشارات لا ترمى الى
أبعاد الفجوة بين هذين الطرفين من أطراف العالم الاسلامي
العربي ، ولكنها ملاحظات يدركها الرحالون دائما في أسفارهم
وتجولاتهم ، ولا يجدون مناصا من الاشارة اليها . ففي ترجمته
للقاضي منذر بن سعيد يذكر أنه تولى « قضاء الجماعة » ، ويحس
أن هذا المصطلح غير معروف عند أهل المشرق ، فيقول في تفسيره :
(المعبر عنه في المشرق بقضاء القضاة) . فاصطلاح : قاضي القضاة
عندنا بالشرق يقابله في الأندلس اصطلاح : قاضي الجماعة .

وتتردد عبارة « أهل المشرق » و « المغرب » كثيرا في كتاب
« تفح الطيب » ، وهو تكرار وترداد يقصد بهما توثيق الرابطة
لا توسيع الهوة . ألا أنه يدلنا على أن الرجل كان متعصبا لمغربيته
محاولا اظهارها في كل مناسبة . فتحس وأنت تقرأه بأن هناك
في العالم الاسلامي مشرقيا ومغربيا ، كأنهما جبهتان متقابلتان ،
والحق أنهما طرفان لجبهة اسلامية عربية واحدة . ففي ترجمته
للمصوفي الكبير محيي الدين بن عربي نراه يقول مثلا : (وكان
بالمغرب يعرف بابن العربي ، بالألف واللام ، واصطلاح أهل المشرق

على ذكره بغير ألف ولام ، فرقا بينه وبين القاضى أبى بكر
ابن العربى) .

ان تعريف المقرئ ايانا بالأندلس ومحاسنها ، وبالغرب وأعلامه
وعلمائه وأدبائه لم يكن الغرض الأصيل من كتابه تفح الطيب .
فقد كان القصد منه — كما اقترح عليه المولى أحمد شاهين —
التعريف بالوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب ، ولكنه — كما
يقول لنا فى خطبة النفح — حدث له عزم بعد ذلك على زيادة ذكر
الأندلس جملة (وبعض مفاخرها الباسقة ، وماثر أهلها المتناسقة) .
فانظر كيف شاء الله أن يستحيل كتاب فى التعريف برجل واحد الى
التعريف بعشرات وعشرات من الرجال ؟ ! وانظر كيف استحال
التعريف بشخص الى التعريف بأمة كان لها فى الجنوب الغربى من
أوربة مقام محمود ، ومكان مشهود . ولكنه استحال — مع
الأسف — الى فردوس مفقود ..

رحم الله أبا العباس شهاب الدين أحمد المقرئ ! لقد زاد
تعريفنا بأهل وأخوان ، لا ينسينا ذكرهم الزمان ..

بين الغربة والحسين

لقد بدأ المقرئ رحلته من الغرب الى الشرق في أواخر رمضان سنة ١٠٢٧ كما يقول في مقدمة « نفح الطيب » (تاركا المنصب والأهل والوطن والألف) . ولا نعلم — ولا نظن أن المقرئ نفسه كان يعلم — مدى رحلته هذه الى الشرق ، ولا متى ينتهى أمدّها . وأغلب الظن أنه ترك تقدير مداها للأقدار التي تتصرف في الناس على غير تدبيرهم . وإذا كنا نعتقد أن هذه الرحلة كانت فرارا من فتن المغرب الذي تمت محاسنه في نظر صاحبنا وكملت فضائله ، لولا سيطرة الفتن الذين ساموا بضائع أمنه تقصا (١) فإن أمر العودة الى الوطن كان مرهونا بصلاح الأمور فيه ، وعودة الاستقرار له ، ورجوع الأمن اليه . وذلك موكول الى الظروف التي كان المقرئ يترقبها بعين الملتف ، ونظر المتشوف .

ولم يكن معقولا ولا مقبولا من عالم فقيه مسلم متدين أن يفد الى مصر ويكون على مقربة نسبية من أرض الحجاز ، ثم لا يشد الرحال الى تلك البقاع الطاهرة التي كانت مهبط الوحي ، ومبدأ الدعوة ، ومنزل الالهام . ومن هنا شمر المقرئ عن ساعد العزم بعد الإقامة بمصر مدة قليلة (الى الهم الأعظم ، والمقصد الأكبر ،

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٨ .

الذى هو سر المطالب الجليلة ، وهو رؤية الحرمين الشريفين ،
والعلمين المنيفين زادهما الله تنويرها ، وبلغ النفوس ببركة من شرفا به
مآرب لم تزل تنويرها) .

وظل الرجل يتنقل فى الشرق العربى الأوسط جاعلا من القاهرة
دارا لاقامته ، ومركزا لرحلاته . فزار مكة خمس مرات فيما بين
عامى ١٠٢٧ و ١٠٣٧ هـ ، وزار المدينة سبع مرات ، وزار
بيت المقدس ، وزار دمشق سنة ١٠٣٧ وعاد منها الى القاهرة فى
العام نفسه حيث شرع فى تأليف كتابه تفح الطيب ، ثم عاود الزيارة
الى بيت المقدس فبلغه فى أواسط رجب سنة ١٠٣٩ وأقام فيه نحو
من خمسة وعشرين يوما ، ثم عاد الى القاهرة فكان ذلك آخر
عهده بالسفر منها الى أن وافته منيته سنة ١٠٤١ هـ .

وهكذا ظل المقرئ قرابة أربعة عشر عاما بعيدا عن وطنه ،
بل بعيدا عن « فاس » التى اتخذها دار اقامة له ، بعد أن رحل
اليها من بلدته تلمسان التى كانت أرض ميلاده وأول بقعة مس
جلده ترابها ..

ومن هنا نعرف أن رحلة المقرئ الى المشرق لم تكن أول غربة
صادفته فى حياته ، فقد سبقتها غربة من أرض ميلاده تلمسان الى
دار اقامته فاس . وفرق ما بين الغربتين أن هذه كانت بين المغرب
والمغرب ، وتلك كانت بين المشرق والمغرب . ومن هنا ندرك أن
المقرئ قد ذاق مرارة الاغتراب منذ أوائل عهده بالشباب . فقد
غادر تلمسان نهائيا الى فاس سنة ١٠١٣ هـ وظل بالعاصمة المغربية

حاضرة الأشراف السعديين ما يقرب من أربعة عشر عاما حتى اضطر الى تركها لأسباب غير واضحة ميمما وجهه شطر المشرق ، راكبا من أهوال البحر واضطرابه ما وصفه لنا في صورة مؤثرة ، الى أن بلغ القاهرة في شهر رجب سنة ١٠٢٨ هـ كما يقول في موضع بعيد عن مقدمة « تفح الطيب » (٢) .

ومنذ حط المقرى رحاله في مدينة فاس وهو كثير الحنين الى تلمسان أرض مولده . ولا يفوته أن يعبر عن هذا الحنين اللاعج في مقدمة كتابه « أزهار الرياض » الذي ألفه وهو نزير بفاس . فقد كانت كتب الأقارب والأخوان ترد عليه من تلمسان ، ولعل أصحابها كانوا يقصدون منها تخفيف هموم الغربة عنه ، ولكن هذه الرسائل والكتب كانت تؤجج لوعته ، وتزيد في ضرام حنينه ، وتحرك فيه كوامن الشوق ، فيأخذ في التحنن الى معاهد تلمسان ومرابعها ، ورياضها وبدائعها . وندعه يصور لنا ذلك بقلمه على طريقته في السجع قائلا : (ولم تزل كتب الأقارب والاخوان ترد على ، وتلقى عنان اعتنائها الى ، وتكرر وتعدد ، وتتاب وتتردد ، وتنوع وتتجدد ، فأرتاح اليها ارياح العفن عند هزته ، وأحن اليها حنين « كثير » الى معاهد « عزته » :

يا من يذكرني حديث أحبتي طاب الحديث بذكرهم ويطيب
أعد الحديث على من جنباته ان الحديث عن الحبيب حبيب
وكثيرا ما يحرك ذلك منى كامن شوق ، شب عمره عن

(٢) ص ٢٦٩ من الجزء الرابع من النفح .

الطوق ، وأجد من لواعج الأوار ، ما وجدته الفرزدق عند مباينته
« النوار » (٣) :

بلد الجزائر ما أمر نواها كلف الفؤاد بحبها وهواها
يا عاذلي في حبها كن عاذري يكفيك منك ماؤها وهواها

والحنين الى الوطن مجال لكل حر ومضمار :

ايه أحاديث نعمان وساكنه أن الحديث عن الأحباب أسمار
وليس بمستكر حنين الناب الى عطنه ، والمرء الى محل نشأته
ووطنه . وقد رونا في الصحيح من حنين سيد الوجود عليه الصلاة
والسلام وأصحابه الى مكة ، ما لا يجهله ألا من هو عن العلوم
بمعزل . ومن الأبيات السائرة :

كم منزل في الأرض يآلفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل
ورب ذكرى أثارت الأشواق وحركتها ، وأنشبت النفوس
في حبائل البؤس وتركتها . وكم من ماجد ، بكى لفقد المشاهد ،
واهتم لبعده المعالم والمعاهد :

سلام على تلك المعاهد انهما

مراتع آلاف وعهد صحابي
ويا سرحة الحي انعمي ! فلطالما

سكنت على مثواك ماء شسبابي

(٣) النوار هي امرأة الفرزدق الشاعر ، وقد ندم على مفارقتها
لها بالطلاق قائلا :

ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقة نوار

أرأيت كيف كان حنين المقرى الى الوطن وهو فى حدود
المغرب ، وليست المسافة بين تلمسان وفاس كتلك المسافات
الشاسعة والمراحل البعيدة بين فاس والقاهرة ، أو بين فاس وأرض
الحجاز ، أو بينها وبين بلاد الشام ؟ فليس عجيبا ولا مستغربا
أن يتضاعف حنين المقرى الى وطنه وأهله منذ رحلته الى المشرق .
وليس عجيبا أن نجد ذلك الحنين اللاعج فى أوائل كتبه ، وفى
مقدمات مؤلفاته . فكما عجل بالتعبير عن الحنين الى الأوطان ، وهو
نزىل بحضرة السلطنة فى فاس ، فى مقدمة كتابه « أزهار الرياض »
الذى ألفه بفاس ، نراه كذلك قد عجل بالتعبير عن الحنين الى
الوطن ، وهو مقيم على الغربية فى القاهرة فى مقدمة كتابه « تفح
الطيب » الذى ألفه استجابة لدعوة أحد أفاضل الدمشقيين .
فهو منذ أمسك القلم ليخط تفح الطيب ، وفى الصفحات الأولى
من هذا الكتاب الضخم ، يبدأ فى اظهار التشوق الى بلاد المغرب ،
والحنين اليها ، وتركه هنا يقول بنص عبارته : (ولم أزل بعد
اتصالى عن الغرب بقصد الشرق ، واتصالى فى أثر ذلك الجمع
بالفرق :

أحن اذا خلوت الى زمـان

تقضى لى بأفئدة الربوع

وأذكر طيب أيام تولت

لنا ، فتفيض من أسف دموعى !

وأَتوق وقد اتسع من البعد الخرق ، وخصوصا إذا شدا
صادح أو أومض برق ، الى ديار ، لا يعدوها اختيار :
وأربع أحباب إذا ما ذكرتها

بكيت ، وقد يكيك ما أنت ذاكر
بطاح وأدواح يروعك حسنها

بكل خليج نممته الأزاهـر)
ثم يمضى صاحبنا في تشوقه وحنينه ، متمثلا بأقوال الشعراء
الذين حنوا الى أوطانهم ، واشتاقوا الى معاهد طفولتهم ، ومراتع
صباهم ، وجمال الطبيعة في أرضهم ، كالشاعر الحائك الأُمى الذى
يقول :

لم أنس أياما مضت ولياليـا
سلفت ، وعيشا بالصريم تصرما
اذ نحن لم نخش الرقيب ولم نخف
صرف الزمان ، ولا نطيع اللوما
والعيش غض ، والحواسد نوم
عنا ، وعين البين قد كحلت عمى !!

وكالأديب المؤرخ ابن خلكان الذى يقول فى شعر رقيق :

| | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| سائق الظعن يوم زم جماله | أى ليل على الحب أطـاله |
| عسفا ، سهوله ورماله | يزجر العيس طاويا ، يقطع المهم |
| بالمطايا ، فقد سئمن الرحاله | أيها السائق المجـد ترفق ! |
| أذ براها السرى وفرط الكلاله | وأنـحها هنيهة وأرحمـا |

لا تطل سيرها العنيف فقد برح
وارث للنازح الذي ان رأى ر
يسأل الربع عن ظباء المصلى
ومحال من المحيل جواب
هذه سنة المحين يكون عـ
يا ديار الأحباب لا زالت الأ
وتمشى النسيم وهو عليل
أين عيش مضى لنا فيك ما أسـ
حيث وجه الزمان طلق نضير
ولنا فيك طيب أوقات أنس
بالصب في سراها الأطلالـه
بعا ثوى فيه نادبا أطلالـه
ما على الربع لو أجاب سؤاله؟!
غير أن الوقوف فيه علاله
لمى كل منزل لا محسـاله
عين في قرب ساحتك مـذاله
في مغانيك سـاحبا أذياله
رع عنا ذهابه وزواله ؟
والتداني غصونه ميسـاله
ليتنا في المنام تلقى مثاله !

ويظهر أن شهاب الدين المقرئ كان مشحونا بالحنين الى الوطن
الى درجة لم تسعفه بها عبارته ، ولم تسعده بها قريحته ، فلجأ الى
كثيرين من الشعراء يستعير منهم أشعارهم في الحنين والغربة ،
أو ان شئت ، يستعير منهم دموعهم ليسكبها على صفحات
القرطاس في « تفحه » . فما خطر على باله ، ولا قفز من ذاكرته
شعر في الحنين والشوق الى الأوطان الا سطره في المقدمة أول
الأمر ، ثم في متن الكتاب بعد ذلك ، ولا يبالى بذلك الشعر الذي
يرويه ان كان حنينا الى بلاد الغرب ، أم حنينا الى نجد بأرض
الجزيرة العربية ، أم حنينا الى العراق ، أم حنينا الى أى بلد من
بلاد الله .. فكله حنين ، وكله تعبير عن ذلك الشعور الذي يجده

الغريب نحو وطنه الذي نأى عنه ، ويأمل في الاقتراب منه ،
والأوبة اليه .

وإذا كان معقولا أن يروى لنا المقرئ شعرا في الحنين الى الغرب
لتشابه المناسبة بين الحالين : حال قائل الشعر في الحنين الى المغرب،
وحاله هو أيضا في الحنين الى المغرب كذلك ، فقد يبدو بعيدا عن
المناسبة واقتضاء المقام أن يروى لنا شعرا قيل في الحنين الى نجد
أو العراق أو غيرها . ولو أنه قصر روايته في شعر الحنين الى
الأوطان على ما قيل من شعر في الحنين الى المغرب لكانت المناسبة
على أتمها ، والمشابهة على أكملها ، ولكنه أراد أن يحشد لنا حشدا
هائلا من شعر الحنين مطلقا من غير ملاحظة تخصيص بحاله ..

ومما رواه المقرئ من شعر الحنين الى الوطن ما فيه اظهار
لفضيلة المغرب على المشرق ، مما لا يكاد يرىء صاحبنا رحمه الله
من مظنة الاتهام بالتعصب لبلاد المغرب .. فقد تمثل بشعر الشاعر
الأديب الوداعي — وهو شاعر أديب دمشقي اسمه علي بن المظفر
ت سنة ٧١٦ هـ — في تفضيل الغرب على الشرق قائلا :

(وأتمثل ان ذكرت حال وداعي ، بقول الشاعر الأديب
الوداعي :

الغرب خير ، وعند ساكنه أمانة أوجبت تقسده
فالشرق من نيّره عندهم يودع ديناره ودرهمه !)
ثم يصرح بعد ذلك برواية شعر لشاعر آخر فيه « اشارة لفضل
الغرب وخيره » :

أشتاق للغرب وأصـبـو الى معاهد فيه وعصر الصـبـا
يا صاحبي نجواي والليل قد أرخى جلايب الدجى واختبا
لا تعجبا من ناظر سـاـهـر بات يراعى أنجـمـا غيـبـا
القلب في آثارها طـسـائـر لما رآها تقصد المغربـا !

لقد كان المقرئ يبحث في مروياته أو كتبه عن شاعر أى شاعر
يحن الى وطنه ، أى وطن ، ليسجل له شعره فى كتابه « تفح
الطيب » . ومن هنا نراه يروى لنا شعرا قاله « السراج » (٤)
صاحب كتاب « مصارع العشاق » فى الحنين الى العراق :

قد قلت والعبرات تسـ فحها على الخـسـد المآقى
حين انحدرت الى الجزيرة واقطعت عن العـسـراق
وتخبطت أيدى الرفـسـا ق مهامه اليبـد الرقاق :
يا بؤس من سـلـ الزما ن عليه سـسـيفا للفراق !
ولما طال بالمقرئ فى الشرق شوقه وحنينه الى وطنه فى المغرب ،
ولم يجد فى ذلك جدوى غير تقريح الجفون ، واذابة ماء العيون
لجأ (الى الصبر ، بعد امعان النظر والتدبر ..

وأنى لأدرى أن فى الصبر راحة
ولكن اتفاقى على الصبر من عمرى
فلا تطف نار الشوق بالشوق طالبا
سلوا ، فان الجمر يسـعـر بالجمـر ..)

(٤) هو جعفر بن أحمد بن الحسين السراج المعروف بالقارىء
البغدادى . توفى سنة ٥٠٠ هـ .

وهكذا لم يجد مفرا من التسليم ، ولا مندوحة من الاذعان
والاستسلام ، في انتظار ما تجرى به أحكام الزمان . وهنا أخذ
يروى لنا شعرا آخر يضرب بين الجزع حينا وبين التعزى
بالسلوان أحيانا ، عسى أن يبدل الله المرء دارا فيها من السعود مثل
ما في أوطانه التي فقدوها ، كتسليّيه بقول بعض أعيان الأندلس
ولم يذكر لنا اسمه :

لا تكثر بفراق أوطان الصبا

فعسى تنال بغيرهن سسعودا

فالدّر ينظم عند فقد بعاره

بجميل أجياد الحسان عقودا

ولا عزاء بعد هذا الشعر أجمل ولا أليق في التسلى عن فراق
الأوطان ، فالدر يفارق موطنه في البحار ، ولكنه فراق للكرامة
لا للمهانة ، حيث ينظم عقودا بهية تجمل به الحسان أجيادهن ،
وتحلى به الغيد نحورهن ..

ونطوى الجزء الأول الضخم من « تفح الطيب » ، ونحسب
أنا فرغنا فيه من شعر الحنين الى الوطن الذى ملأ به الرجل
مقدمته . ويخيل إلينا أن صاحبنا قد تأسى وتصبر .. ولكننا نجد في
الصفحات الأولى من الجزء الثالث من النفع أن الرجل يعاوده
الحنين الى بلاده ، وهو في معرض الحديث عن لسان الدين
ابن الخطيب وأوليته وأسلافه ، فقد استطرد الى ذكر قصيدة

للوزير الشهير عبد العزيز الفشتالي (٥) مدح بها النبي عليه السلام ، وتخلص من مديحه الى مدح السلطان أحمد المنصور العباسي الحسنى سلطان المغرب أيام كان المقرئ لا يزال فيه لم يرحه الى الشرق . ونرى المقرئ يمهّد لتسجيل القصيدة بقوله : (وقد رأيت أن أسرد هنا هذه القصيدة الفريدة ، لبلاغتها التي بزت شعر اليتيمة والخريدة ، ولأن شجون الحديث الذي جر اليها شوقتي الى معاهدي المغربية التي أكثر البكاء عليها بحضرة المنصور بالله الامام ، سقى الله تعالى عهادها صوب الغمام ، حيث الشباب غض يانع ، والمؤمل لم يحجبه مانع ..) وبعد أن أورد المقرئ قصيدة الوزير الفشتالي ختمها بقوله : (انتهت القصيدة التي في تغزلها شرح الحال ، وأعرب عما في ضمير الغربة والارتحال ..) .

ولم يكتف المقرئ بهذا بل أخذ يمهّد لروايته قصيدة أخرى للامام محمد بن عبد السلام المغربي التونسي قائلاً في التعليل لتسجيلها في هذا الموضع : (فانها ثقت مصدر غريب ، وبث مغدور أديب ، فارق مثلى أوطانه وما سلاها ، وقرأ آيات الشجو وتلاها ، وتمنى أن يجود له الدهر برؤية مجتلاها ..) . وكنا نظن أن يقف المقرئ عند هذا الحد ، ولكن حينه الى

(٥) هو عبد العزيز محمد الفشتالي . بالفاء لا بالقاف كما ورد خطأ في بعض المراجع ، وقد كان وزيراً للسلطان أحمد المنصور سلطان المغرب في عصر المقرئ ، وكان بينه وبين المقرئ مودة وصلة ، ويصفه بأنه الوزير الكبير الشهير صاحب القلم الأعلى .

وطنه ليس له حدود ، فبعد أن فرغ من رواية قصيدة محمد ابن عبد السلام التونسي لما اشتملت عليه من شعر في الشوق الى المعاهد ، والحنين الى الديار ، أخذ يمهد لرواية قصيدة نونية للوزير لسان الدين بن الخطيب قائلا : (ولصاحب الترجمة لسان الدين بن الخطيب قصيدة طنانة بهذا الوزن والقافية — يريد وزن وقافية قصيدتي التونسي والفشتالي — مدح بها السلطان أبا سالم المريني حين فتح تلمسان ، وقد رأيت ايرادها في هذا الباب ، لما اشتمل عليه آخرها من شرح أمر الاغتراب ، الذي حير الألباب ، وللمناسبة أسباب ، لا تخفى على من له فكر مصيب ، وكل غريب للغريب نسيب ..) (٦) .

ولعل المناسبة التي يشير اليها المقرئ تلميحا ، والتي تؤكد لنا المشابهة بين حال الرجلين في الاغتراب عن الوطن هي التي تفسر لنا بعض التفسير سر ارتحال المقرئ الى الشرق وهجرته من المغرب ، مما يجد القارئ الكريم تفصيل الحديث عنه في فصل آخر من هذا الكتاب ..

على أن شهاب الدين المقرئ لم يكن المغربي الوحيد الذي رحل الى الشرق فعليه الحنين الى أهله ووطنه بالمغرب . فهناك عشرات سبقوه ، وعشرات جاءوا بعده ، وصادفهم في رحلتهم الى الشرق مثل ما صادفه . ولكننا نجتزئ هنا بذكر واحد منهم وهو الأديب ابن سعيد المغربي الذي جاء الى الشرق في القرن السابع

(٦) نفع الطيب ج ٣ ص ١٦ .

المجرى ونزل بمصر وأقام فيها مدة ، وندعه هنا يصور لنا شعوره
بالغربة قائلا : (ولما قدمت مصر والقاهرة أدركتني فيهما وحشة ،
وآثار تذكر ما كنت أعهد بجزيرة الأندلس من المواضع المبهجة
التي قطعت بها العيش غضا خصبيا ، وصحبت بها الزمان غلاما ،
ولبست الشباب برذا قشيبا ..) (٧) . وقد انقل بن سعيد المغربي
بهذه الأثر التي أنطقته بقصيدة فاتنة مطربة يقول فيها :

هذه مصر فأين المغرب مذ نأى عنى فعينى تسكب !
فارقته النفس جهلا . انما يعرف الشيء اذا ما يذهب
أين حمص (٨) أين أيامى بها بعدها لم ألق شيئا بعجب !
وبعد أن يستعيد لنا في صور شعرية فاتنة أيامه الجميلة في
الأندلس وأحواله السعيدة بها ينتقل الى وصف حاله بمصر
قائلا :

هذه حالى ! وأما حالتي فى ذرا مصر ففكر متعب !
سمعت أذننى محالا ! ليتها لم تصدق ويحها من يكذب !
هأنا فيها فريد مهممل وكلامى ولسانى معرب !
وأنادى : مغربيا ! ليتنى لم أكن للغرب يوما أنسب ..
على أن هذا التمنى فى الانسلاخ من النسبة الى المغرب عند
ابن سعيد المغربى يقابله اصرار على « المغربية » عند صاحبنا
المقرئ ، وهو اصرار يذكرنا باصرار المؤرخ العبرى ابن خلدون
على أن يتزيا فى مصر بالثياب المغربية ولا ينزعها أبدا ..

(٧) نفع الطيب ج ١ ص ٤٥٦ .

(٨) هى حمص التى كانت بالأندلس لا حمص الشامية .

مؤلفات المقرئ

اشتهر أبو العباس أحمد المقرئ بكتابه (نفح الطيب) أكثر من شهرته (بأزهار الرياض في أخبار عياض) ، ولعل مرد ذلك الى أن النفح قد طبع منذ أكثر من مائة عام في أولى طبعاته بمطبعة بولاق سنة ١٢٧٩ هـ — سنة ١٨٦٢ م ثم طبع بعد ذلك سنة ١٣٠٢ هـ — سنة ١٨٨٥ هـ في المطبعة الأزهرية ، فعرفه الناس وتداولوه ، واشتهر أمر الكتاب وصاحبه لأنه كان أول كتاب يتناول الحديث عن الأندلس بالتفصيل . ولما طبع النفح طبعته الثالثة بمصر سنة ١٩٤٩ م كان ذلك استجابة لتلف الناس الى هذا الكتاب الذي عرفوا قدره فالتمسوه وافتقدوه . أما أزهار الرياض فقد طبع سنة ١٩٣٩ بمصر عن بيت المغرب بالقاهرة ، وصدر منه ثلاثة أجزاء محققة على أوفى ما يكون التحقيق ، ومن هنا جاءت معرفة الناس به متأخرة بعد النفح ببضعة عقود من السنين . ولم تكن طبعة الجزء الأول من أزهار الرياض في تونس سنة ١٣٢٢ هـ — سنة ١٩٠٤ م فقد كانت شائهة محرفة مملوءة بالأغلاط . وندع الأديب التونسي الحبيب الجنحاني يصف تلك الطبعة التونسية قائلا : (طبع الجزء الأول من أزهار الرياض في المطبعة الرسمية العربية بتونس سنة ١٣٢٢ هـ ، وقامت بطبعه

اذ ذاك الشركة التونسية لطبع الكتب العربية التي لم تعمر طويلا ،
كأكثر المشروعات التونسية ، رزقنا الله الصبر ، والدأب ،
والاخلاص ! وهذه الطبعة محرفة تحريفا مخجلا ، وخالية من
التعاليق ، وليس فيها مقدمة تعطينا فكرة عن المخطوطات المعتمدة ،
وعن كيفية التحقيق .. (١) .

وللمقرى كتب أخرى بعضها ثابت له ، وبعضها مشكوك في
صحة نسبتها اليه ، وبعضها مفقود لا يعلم له وجود ، وبعضها
لا نعلم غير أسمائها ، وبعضها مشروعات كتب كان في نية المقرى أن
يؤلفها ، ولا ندرى ان كان أنجزها بعد ذلك أم لا . وسنتناول
التعريف بهذه الكتب فيما يلي من صفحات ، مبتدئين « بالنفح »
الذى يعد أوسعها وأمتعها وأحفلها بالفوائد وأشملها للتاريخ
والأدب والشعر ، والذى لو لم يكن للمقرى الا اياه لكفاه ذلك
فضلا .

١ - نفح الطيب

واسمه الكامل الذى أقره المقرى بعد التعديل الذى أدخله
عليه : (نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها
لسان الدين بن الخطيب) . ويذكر لنا الرجل نفسه أسباب تأليفه
لهذا الكتاب . فقد كان وهو فى دمشق يتذاكر مع أدبائها وأعلام
علمائها أخبار الأدب والتاريخ ، فينجر بهم الحديث الى ذكر البلاد

(١) كتاب « المقرى » للحبيب الجنحاني - ص ٨٣ - طبع تونس
سنة ١٩٥٥ .

الأندلسية ، ووصف رياضها ، وتاريخها ، وأعلامها . والرجل
يفيض عليهم من حفظه الواسع ، ومرويه الكثير ما يدهشهم ، حتى
اتهى الى ذكر لسان الدين بن الخطيب — وله في التاريخ الأندلسي
دور كبير — فأفاض المقرئ في مجالسه الدمشقية في أخبار الرجل
وآثاره ، وشعره وثره ، وشيوخه وكتبه وأتى في كل ذلك بالمعجب
المطرب . فاقترح عليه المولى أحمد بن شاهين أن يصنف في ذلك
كتابا . ولكن بعد المقرئ عن كتبه ومراجعته في المغرب قد جعل
له مندوحة من الاعتذار عن مثل هذا العمل . وتكرر الاعتذار من
المقرئ ، وتكرر الالاحاح من أديب الشام وشاعرها أحمد شاهين .
فاضطر المقرئ آخر الأمر الى القبول ، ووعد بالشروع في تأليفه
عند وصوله الى القاهرة . ويحدثنا المقرئ أنه شرع بعد العودة
الى مصر في تأليف النفع ، وكتب منه هنا نبذة مستحسنة . ولكن
مركب العزم وقف به عن اتمام الكتاب . فلما علم المولى الشاهيني
بذلك كتب اليه يستعجزه وعده ، فلم يجد المقرئ بدا من المضي
في الكتاب الى غايته واتمامه . وقد فرح أحمد شاهين حين زفه
اليه المقرئ بشرى انجاز النفع ، وعبر عن ذلك برسالة لطيفة بعث
بها اليه من دمشق (٢) .

ويصرح لنا المقرئ في مقدمته الطويلة للنفع بأنه أسماه أولا :
(عرف الطيب ، في التعريف بالوزير ابن الخطيب) ثم وسّمته

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٥٤ .

— حين ألحقت أخبار الأندلس به — بنفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) .

وقد ارتفع المقرئ بكتابه هذا عن أن يؤلفه تقربا الى ملك ، أو التماسا للعطاء من سلطان ، بل ألفه قضاء لدين ، ووفاء لوعده سبق . ويقول في ذلك : (ولم يكن جمعى — علم الله — هذا التأليف لرفد أستهديه ، أو عرض نائل أستجديه ، بل لحق ود أؤديه ، ودين وعد أقدمه وأبديه) ، فخالف بذلك ما جرى عليه عرف كثير من العلماء من تأليف الكتب تقربا الى الأمراء والحكام . ويذكر لنا المقرئ عبارة وجيزة في تقديم كتابه هذا يقول فيها : (فاني قد جمعت فيه ما يندر جمعه في غيره ، وكل الصيد في جوف الفرا) ^(٣) ، ثم يصف لنا القطعة الأولى التي كتبها منه قائلا في أول الكتاب : (وكتبت منه نبذة تستحسنها من المحبين الأسماع والقلوب ، وسلكت في ترتيبه أحسن أسلوب ، وعرضت في سوقه كل تقيس غريب من الغرب الى الشرق مجلوب) ^(٤) .

وقد جعل المقرئ في كتابه نفح الطيب الوزير لسان الدين ابن الخطيب مركزا تدور حوله طائفة كثيرة من المعلومات والمعارف في التاريخ والأدب والأشعار والأخبار والأسماء ، وأكثرها عن الأندلس التي ينتمى اليها الوزير الشاعر الأديب . فللنفح غرضان : التعريف بابن الخطيب أولا ، وبالأندلس وأخبارها ورجالها ثانيا .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٨٧ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٢ .

وقد وفق المؤلف في الغرضين ، وملاهما بسيل فياض من المعارف والنوادر ، ورجع في تأليفه الى مصادر وكتب كثيرة لم يتح لغيره الاطلاع عليها ، ولا يزال كثير منها مفقودا الى اليوم . وقد ناقشنا في موضع آخر من كتابنا هذا ما قيل من أن النفح منقول عن « المغرب » لابن سعيد . « فالمغرب » لا يغنى عن نفح الطيب شيئا ، لأن في النفح من أخبار العصور بعد عصر ابن سعيد المغربي في القرن السابع الهجرى ما يجعل منه مصدرا حافلا عظيما عن الأندلس والمغرب . وخاصة الأندلس في أيام محنتها الأخيرة وخروج العرب منها ، وإن كان المقرئ لم يفصل أخبار ذلك كما فصل فيما قبل ذلك من أخبار ..

وقد قسم المقرئ كتابه نفح الطيب الى قسمين كبيرين : أولهما في الحديث عن الأندلس وتاريخها وآدابها وفيه ثمانية أبواب ؛ في وصف الجزيرة الأندلسية ، وفتح العرب لها ، وعز الاسلام بها ، ووصف قرطبة وجامعها وقصورها ، والتعريف ببعض من رحل الى المشرق من الأندلسيين ، وذكر بعض الواقدين على الأندلس من أهل المشرق ، وذكر طائفة من حكايات أهل الأندلس ونوادرهم الدالة على توقد أذهانهم ، والأخير منها في الحديث عن تألب العدو على المسلمين والأندلس ، حتى استولى عليها ، ومحا كلمة الاسلام منها ..

أما القسم الثانى من النفح فهو في التعريف بابن الخطيب ، ويشتمل كذلك على ثمانية أبواب .

٢ - ازهار الرياض ، فى أخبار عياض

لقد صنف المقرئ هذا الكتاب وهو فى المغرب بمدينة فاس قبل مجيئه الى المشرق . ومن لطيف المفارقات ان أشهر كتابين للمقرئ ألف أحدهما فى بلاد المغرب ، وألف الآخر فى بلاد المشرق ، حتى تكون النسبة بينهما على سواء . وكما كان تأليف النفع استجابة لدعوة أديب عالم دمشقى ، كان تأليف ازهار الرياض استجابة لطلب جماعة من أهل بلده تلمسان الذين أحبوا أن يؤلف كتاب فى تاريخ عالم المغرب ومحدثه وقاضيه الامام عياض بن موسى ابن عياض ، صاحب كتاب « الشفا ، بتعريف حقوق المصطفى » وهو مشهور . وكان القاضى عياض من أعلم الناس بكلام العرب وأيامهم وأنسابهم ، وهو سبتي المولد ، غرناطى الإقامة ، مراكشى الوفاة . سنة ٥٤٤ هـ .

وقد لقى كتاب ازهار الرياض فى المغرب قبولا ورواجا عظيمين ، وأثنى عليه العلماء فى وقته ثناء مستطابا ، وتسابق الناس الى اتساخه بصورة لم تعهد فى كتاب . وقد كان العالم أحمد ابن عبد العزيز أبى عمرو — صديق المقرئ — هو أول من نسخه ، وقدمه الى المقرئ ليقيد على هامشه بعض تعليقاته بخطه . ويشير الشيخ محمد بن يوسف التاملى صديق المقرئ الى هذا فى رسالة له اليه قائلا : (وأما تأليفكم الكثير الفوائد ، المسمى بأزهار الرياض فى أخبار عياض ، وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض ، فقد انتشر فى هذه الأقطار المراكشية ، واتسخت

منه نسخ عديدة من نسخة المرحوم سيدى أحمد بن عبد العزيز ابن الولى سيدى أبى عمرو ، وكسا الله سبحانه تأليفكم المذكور جلباب القبول ، فما رآه أحد الا نسخه ، وعندى النسخة التى كتبها بخطه السيد أحمد المذكور بخط حسن ، وعلى هامشها فى بعض الأماكن خطكم الرائق ، وبعض تشبيهات من كلامكم الفائق .. (٥) .

وإذا كان فى النفع إعادة كلام كثير مما جاء فى أزهار الرياض ، فإن المقرئ يصرح بذلك ولا يكتمه ، بل قد يزيد فى النفع على ما جاء به فى الأزهار فى بعض المواطن ، كما قد يكون فى بعض المواطن ناقصا عنه .

٣ - فتح المتعال ، فى مدح النعال

ألف المقرئ هذا الكتاب بالقاهرة ، حيث كان مع جماعة من الأعلام يسمرون ويتحدثون ، وجرهم الحديث الى النعل النبوية ومثالها الكريم ، وما قيل فيه من الأمداح المنشورة والمنظومة . وينفعل المقرئ بهذا ، فينظم فى نعل النبى أرجوزة وينشد فيها أشعارا كثيرة ، ثم يطلب اليه التصنيف فى هذا الموضوع الذى جمع فيه كثيرا من القصائد التى كان يحفظها وهو بالمغرب . والكتاب يبين ناحية اعتقادية دينية عند المقرئ كانت مثار اهتمام وشغف عند المتدينين وخاصة فى دمشق . ومن هذا الكتاب نسخ

(٥) نفع الطيب ج ١ ص ٥٥٩ - ٥٦٠ .

خطية في مكتبات مغربية ومشرقية . ولم يصل الى علمنا أنه طبع (٦) .

٤ - اتحاف المغرب المقرئ ، بتكميل شرح الصغرى

بدأ المقرئ تأليف كتابه هذا في المغرب ، وما كاد يحط رحله في الاسكندرية حتى أكمل ما كان قد فاتته من ذكره . وهو في علم الكلام ، ولم يطبع الى اليوم ، وتوجد منه نسخة خطية في خزانة جامع الزيتونة .

٥ - اضاءة الدجنة في عقائد اهل السنة

وهو منظومة أو أرجوزة في علم الكلام والتوحيد ، وقد بدأه في المغرب أيضا وأتمه في القاهرة . ومنه نسخ في تونس .

٦ - روضة الآس ، العاطرة الأنفاس ، في ذكر من لقيته من اعلام مراکش وفاس

وموضوع الكتاب مذكور في العنوان ، فهو من كتب التراجم التي تعد ذات قيمة لتعريفنا ببعض اعلام الرجال في عصر المقرئ . ولكنه مع الأسف مفقود . ويذكر الأستاذ عبد الحى الكتانى أن اسم الكتاب في فهرس المكتبة السلطانية بفاس ، ولكن الكتاب نفسه غير موجود ! ولعل يدا امتدت اليه . ويشير المقرئ نفسه الى كتابه هذا في تفح الطيب قائلا : (وقد بسطت الكلام على

(٦) فى كتاب الأستاذ الحبيب الجنحاني تفصيل المواطن التي توجد فيها مخطوطات هذا الكتاب .

السلطان المذكور في كتابي : روضة الآس ، .. الخ (٧) والسلطان الذي يشير اليه هنا هو المنصور السعدي ، عظيم دولة السعديين في المغرب .

ومن مؤلفات أبي العباس المقرئ : « حسن الثنا ، في العفو عن جنى » وقد جمع فيه بعض الآيات والأحاديث والآثار الواردة في طلب العفو عن المذنب . وقد طبع على الحجر في مصر بدون تاريخ في سبع وأربعين صفحة . و « الشفاء في بديع الاكتفاء » و « الأصفياء » وقد عرفناهما من رسالة بعث بها المولى الشاهيني اليه . ولا نعلم عن موضوعهما شيئا . كما لا يعلم مكان وجودهما ان كانا موجودين . و « أتحاف أهل السيادة ، بضوابط حروف الزيادة » يعنى حروف (سألتمونيها) المشهورة في كتب النحو . وقد أشار اليه المقرئ في النفح قائلا : (وقد جمعت في المغرب زيادة على ما تقدم ، وكنت قدرت رسالة فيها أسميها اتحاف أهل السيادة بضوابط حروف الزيادة) (٨) ويظهر أن هذه الرسالة لم تتم ، و « أنواء نيسان ، في أنباء تلمسان » ويظهر أنه كذلك من الكتب التي لم تتم ، ويشير اليه المقرئ في النفح قائلا : (وقد كنت بالمغرب نويت أن أجمع في شأنها كتابا ممتعا ، أسميه بأنواء نيسان ، في أنباء تلمسان ، وكتبت بعضه ثم حالت بيني وبين ذلك العزم الأقدار ، وارتحلت منها الى جزيرة فاس حيث ملك الأشراف ممتد الرواق ، فشغلت بأمور الامامة والفتوى والخطابة وغيرها) (٩) .

(٧) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٣٣ . (٨) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٧١ .

(٩) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٦٨ .

ومن مشروعات الكتب عند المقرئ كتاب « نشق عرف دمشق »
أو « مشق قلم المدح لدمشق » ويشير إليه في النسخ بأنه كان في
نيتة أن يجمع فيها كتابا حافلا ، ويظهر أن هذه النية لم تقترن
بالتنفيذ . أما الكتاب المسمى « الجمان في أخبار الزمان » فالتحقيق
على أنه ليس له وأنه كان مما نسخه من تأليف غيره ، فظنه بعض
من لا يحققون أنه له . ويؤكد الأستاذ الجنحاني أنه لمحمد
ابن علي الصقلي المشهور بالحاج الشطبي المتوفى سنة ٩٦٣ هـ
ويسوق على هذا بعض الأدلة القوية . على أنه من الخير للمقرئ
أن لا يكون هذا الكتاب له ، فهو كما يصفه الأديب الباحث
التونسي : (عديم الجدوى ، ليس فيه فائدة البتة ، وأن دل على
شيء فانما يدل على غفلة مؤلفه ، وضعف تفكيره) .

نهایة المطاف

اذا جرینا علی رأی الذین استظهروا أن میلاد المقری کان حوالی سنة ۹۹۲ هـ ، وعرفنا أن وفاته علی رأی أكثر مؤرخیه سنة ۱۰۴۱ هـ ، فإن الرجل یكون قد قضی فی الحیاة ما یقارب الخمسین عاما .

ولقد طوف المقری فی الأرض شرقا وغربا ، فما كانت تلذ له الاقامة فی بلد لمدة طويلة . الا اقامته فی فاس التی بلغت أربعة عشر عاما ، من سنة ۱۰۱۳ الی سنة ۱۰۲۷ هـ ، وایامته فی القاهرة التی بلغت ما یقرب من أربعة عشر عاما كذلك — من سنة ۱۰۲۷ الی وفاته سنة ۱۰۴۱ هـ .

ویشاء الله أن لا یفرح المقری بعودته الی وطنه فی المغرب بعد طول الحنین له والتشوق الیه . ولعله کان بعد عودته من زیارة دمشق سنة ۱۰۳۷ علی نية العودة الی وطنه ، ولكن الأخبار كانت توافیه دائما من أصدقائه فی المغرب بسوء أحواله ، واضطراب أموره ، وافتقار الأمراء السعیدین بعضهم علی بعض ، طمعا فی السلطان ، مما جر الی فتن یشیب لهولها الولدان . فما الذی یحملة علی الرجوع الی وطن مملوء بالفتن ، مشحون بالهزات والاضطرابات منذ اللحظة التی غادره فیها الی المشرق ؟

ولعل الرسالة التي بعث بها من المغرب اليه بعض أصحابه
ممن كانوا يقرءون عليه دروس العلم في حضرة السلطنة السعدية
تكشف لنا عن بعض ما كان يجري في المغرب من أهوال . وفيها
يقول مرسلها : (هذا وأنه ينهى الى الوداد القديم ، أن أهل الغرب
الأدنى والأقصى حاضره وباده ، كلهم يتفكّهون بل يتقوتون
بذكركم ، ويشتاقون لرؤية وجهكم ، ويتلذذون بطيب أخباركم .
وان كان المغرب الآن في تفاقم أحوال ، وتراكم أهوال في الغاية ،
مدائن وبوادي ، لا سيما مدينة فاس فانها في شر عظيم ..) (١) .
ولقد أنزل أهل الشام صاحبنا المقرئ منهم أكرم منزل ، وألحوا
الطلب عليه بأن يعاود الكرة الى زيارتهم والاقامة بينهم . ووعدهم
الرجل بالانجاز ، وسجلوا عليه هذا الوعد في رسائلهم اليه
بالقاهرة (٢) . وقد كان الرجل على نية أن يجيبهم الى رجائهم ،
ولكن انشغاله بحادث طلاق زوجته ، وحزنه على فقد طفله ، قد
صرفاه عن هذا القصد ، وقعدا به عن أن يحرك للأسفار قدما ،
فظل يؤلف نفح الطيب ؛ وظل يكمل تأليفه حتى سنة ١٠٣٩ كما
يقول في آخر الكتاب . ويسكت التاريخ عن أخباره من سنة ١٠٣٩
الى سنة ١٠٤١ الى أن يذكر لنا المحبى صاحب خلاصة الأثر نبأ
وفاته بالقاهرة في جمادى الآخرة سنة احدى وأربعين وألف حيث
دفن بمقبرة المجاورين .

ولم ينفرد صاحب خلاصة الأثر بذكر وفاة المقرئ في القاهرة ،

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٥٦٢ . (٢) المصدر نفسه ص ٥٤٩ .

فقد ذكر وفاته بها أيضا على بن معصوم صاحب « سلافة العصر » ،
وقد كان الرجلان — أعنى المحبى وابن معصوم — قريين كل
القرب من عصر المقرئ ، فقد ماتا فى العقد الثانى من القرن الثانى
عشر ، ولا شك أن روايتهما عن وفاة أبى العباس المقرئ بالقاهرة
هى رواية لا يتسرب اليها ضعف ، لقرب عهدهما من الرجل من
ناحية ، ولقرب اقامة المحبى من القاهرة من ناحية أخرى .

وقد جاء فى كتاب « تعريف الخلف » أن المقرئ مات مسموما
بالشام ، ونقل الأستاذ الحبيب الجنحاني عنه هذه الرواية (٣) ،
كما نقل رواية وفاته بالقاهرة ، وقدمها عليها . ولكنه لم يعلق على
رواية الوفاة مسموما بالشام بكلمة . وكنا نود أن نسمع رأيه فى
هذه الرواية التى لا نعلم من أى مصدر استقاها مؤلف « تعريف
الخلف » . وهى رواية يشك المرء فى قبولها وتصديقها ، وخصوصا
أن المحبى صاحب « خلاصة الأثر » كان مقيما بالشام لأنه دمشقى ،
ولو أنه عرف شيئا عن وفاة المقرئ مسموما هناك ما تردد فى
الإشارة إليه أو تسجيله فى كتابه فى تراجم القرن الحادى عشر .

على أن المحبى لم يكتف بأن يقول بوفاة المقرئ فى مصر ،
بل زاد على ذلك أنه دفن بقرافة المجاورين ، وليس بعد هذا
مجال للقول بأن صاحبنا مات مسموما بالشام . وإذا اتفت حكاية
موت المقرئ بالشام اتفت معها حكاية وفاته بالسم ، فالخبر كله
متكامل ؛ فأما أن يقبل كله أو يرفض كله .

(٣) المقرئ : دراسة تحليلية — طبع تونس — ص ٥٧ .

ولو قلنا ان من الجائز أن يكون المقرئ قد مات بالقاهرة فعلاً ،
ولكنه مات مسموماً ، فنحن في حاجة الى من يوثق لنا هذا
القول ، وخاصة أن ابن معصوم والمحبى قد ذكرا نبأ الوفاة بمصر
أو القاهرة ، ولكنهما لم يشيرا الى حادث السم على الاطلاق .

وقد نقل الأستاذ خير الدين الزركلى في « الأعلام » رواية
موت المقرئ بالشام مسموماً عن كتاب « تعريف الخلف » ،
ولم يعلق عليها بشيء يوهنها أو يؤكدھا ، ولكنه ذكرھا بصيغة
التضعيف قائلاً : « وقيل توفى بالشام مسموماً » أما الأستاذ عمر
رضا كحالة صاحب « معجم المؤلفين » فذكر أنه توفى بالقاهرة
في جمادى الآخرة . ولم يتعرض للرواية الأخرى بشيء ، مع أنه
كثيراً ما يرجع الى أعلام الزركلى مصدراً من مصادره . ولعل
شكه في هذه الرواية وعدم ارتياحه اليها جعله ينفيها نفيًا تاماً
من معجمه .

وبمناسبة ذكر دفن المقرئ في مقبرة المجاورين بالقاهرة
نستطرد — كمادة المقرئ الذى سرت اليها عدواه ! — الى ما قاله
الأديب التونسى الحبيب الجنحاني تعليقا على هذه القرافة أو المقابر
من أنها (احدى المقابر الواقعة شرقى القاهرة ، وقد اندثرت
الآن) وذكر أنه نقل هذا عن « النجوم الزاهرة » لابن تغرى
بردى . والذى فى النجوم هو تعليق من المرحوم « محمد
رمزى بك » على تربة الأمير قراستقر التى بناها فى مقبرة المجاورين .
وقد اندثرت التربة ، أما مقابر المجاورين نفسها فهى لا تزال

— والآجال بيد الله — تطلع الوافدين اليها من أرحام الفائين ..
هذا مبلغ تحقيقنا لوفاة المقرى ومكان دفنه وسبب موته ،
على أن سنة وفاته تحمل اختلافا بين المؤرخين وكتاب السير .
ولا نذكر أحدا سبقنا الى تحقيق عام الوفاة بهذا الدليل الذى
سيأتى بعد ، والذى نعهده فيصلا فى القضية .

فقد ذكر المحبى صاحب خلاصة الأثر أن وفاة المقرى كانت
(فى جمادى الآخرة سنة احدى وأربعين وألف) وقد كتبها
بالحروف لا بالأعداد على عادة القدماء ، حتى تكون أكثر ضبطا ،
وأبعد عن اللبس والتحريف فى الأرقام .

ولكننا اذا رجعنا الى صاحب « سلافة العصر » وجدناه يقول :
(وكانت وفاته سنة ستة وأربعين وألف) أى سنة ١٠٤٦ بالأعداد .
وكتابة ابن معصوم لها بالحروف تدل على مبلغ تحريه للضبط
حتى لا يتسرب وهم اليها . ولكننا نشك فى صحة هذا الضبط .
ولعله من تحريفات النساخ والمطابع معا ، فان كتاب سلافة العصر
المطبوع فى مصر سنة ١٣٢٤ مشحون بكثير جدا من التحريفات
المطبعة ، وطبعته هذه شائبة محرفة لا نطمئن اليها ونحن نرجع
الى قراءتها من حين الى حين ، وتأخذ عباراتها وأعلامها وتواريخها
دائما بالحدز الشديد . ولم نطلع على الأصل المخطوط الذى أخذت
عنه طبعة أمين الخانجى هذه ، فلعل ذلك كان يهديننا الى أصل
هذه اللفظة : أهى : ستة وأربعين وألف ، أم احدى وأربعين وألف .
وهناك رواية ثالثة ذكرها صاحب ذيل كشف الظنون تقول

ان المقرئ توفي سنة ١٠٤٣ . ولا ندرى من أين جاء بها اسماعيل البغدادي صاحب الذيل ، وان كان الحبيب الجنحاني نقلها في هامش كتابه ، كما نقل رواية ابن معصوم صاحب السلافة ، وعلق عليهما بقوله : (ويبدو أن رواية ١٠٤١ هـ هي الصحيحة) .

والحق مع الأديب الجنحاني فيما (بدا) له في هذه المسألة ، وان كان لم يؤيد رأيه بدليل ، أو يدعمه بتدليل ، بل اكتفى بما بدا له .. على أن بين أيدينا دليلا قويا يؤكد رواية سنة ١٠٤١ هـ ، وينفي كل رواية غيرها مما أملاه الوهم وعلقت به الأوهام . فان الأديب الشاعر الدمشقي ابراهيم الأكرمي الذي كان معاصرا للمقرئ ، والذي عقد معه صلات الود في أثناء زيارته لدمشق ، قد أرخ وفاته بتاريخ شعري لطيف يقول فيه :

قد ختم الفضل به فأرخسوه خاتم

ومجموع حروف كلمة « خاتم » بحساب الجمل هو (١٠٤١) ،

فان الخاء = ٦٠٠

والألف = ١

والتاء = ٤٠٠

والميم = ٤٠

فيكون مجموعها ١٠٤١ .

ونرجو أن يكون هذا الدليل الذي لا يقبل النقض هو فصل الختام في هذه القضية ، قضية تاريخ وفاة الأديب المصنف المغربي

الذى مشى من المغرب الى المشرق خطواته المكتوبة ، ليلقى منيته
فى أرض مصر ، التى رحبت به ، ولكنه ضاق بها — لظروفه
الخاصة — فأتسعت له مقابرها التى تسع آلاف الآلاف ، ولكنها
لا تشبع ..

وهكذا مضى المقرئ وقضى فى القاهرة ولسان حاله يقول :

| | |
|----------------------|---------------------------|
| مشيها خطى كتبت علينا | ومن كتبت عليه خطا مشاها : |
| ومن كانت منيته بأرض | فليس يموت فى أرض سواها |

فهرس

| صفحة | |
|------|--------------------------------------|
| ٣ | مقدمة |
| ٧ | ملاحع عصر |
| ١٢ | بين المولد المغربى والنسب انقرشى |
| ٢٦ | بين المغرب والمشرق |
| ٣٣ | زواج من بيت السادات وطلاق فى القاهرة |
| ٤٣ | بين دمشق والقاهرة |
| ٥٢ | شيوخه وروايته عن عمه |
| ٦٠ | منح الأجازات العلمية |
| ٦٦ | تحت قبة النسر فى الجامع الأموى |
| ٧٥ | أصحاب المشرق وأصدقاء المغرب |
| ٨٧ | طريقته فى التأليف |
| ١٠٣ | حافضة قوية |
| ١١٩ | بين الجد والهزل |
| ١٢٦ | المسح النبوى |
| ١٤٢ | بين التصوف وكرامات الأولياء |
| ١٥٢ | معرف الشرق بالمغرب |
| ١٦١ | بين الغربية والحنين |
| ١٧٤ | مؤلفات المقرئ |
| ١٨٤ | نهاية المطاف |

١٠ ملصاق القوسية للطباعة والنشر

